السجين ١٠١

حسن قصاص

اسم الكتاب : السجين ١٠١

اسم الكاتب : حسن قصاص

رقم الإيداع : ٨١٦٨ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : ٩٧٨٩٧٧٨٣٥٠٤٦٣

الطبعة الأولى : ٢٠١٨

مراجعة لغوية ، وإخراج داخلي : هيام فهيم

صادر عن : مؤسسة زحمة كُتَّاب للثقافة والنشر

١٥ ش السباق – مول الطريلاند – مصر الجديدة

www.za7ma-kotab.com

دار زحمة كتاب للنشر

za7ma_kotab_publishing

za7ma-kotab@hotmail.com

٠١٢٠٥١٠٠٥٩٦

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمؤسسة زحمة كُتَّاب للثقافة والنشر

الإهداء ..

إلى جورج وعلي .. حمود وماجد ..

وإلى كل معتقلي الكلمة والرأي والمعتقد في معتقلات العالم كافة.

مقدمة ..

- من منا لم يسمع عن وحشية السجون؟

تختلف الأسباب التي تودي بالمرء إلى غياهب السجون، إلى منصات الألم الموجع، إلى أشكال التعذيب المختلفة، إلى العتمة التي لا يعرف ساكنها متى تنتهي، ولكل سجين أو معتقل أو محتجز أو مغيب قسريًا قصته التي لا تشبه كثيرًا قصص أشباهه ممن قضوا فترات مختلفة تحت برازخ السجن؛ من حيث الأسباب والأماكن والمعاملة ولكن تبقى السجون سجون مهما جُمِّلت معالمها وممراتها، تبقى السجون سارقة للحريات.

في سطور هذه الرواية، ستمر عيوننا على كلمات خلفها قصة حقيقية. تألم صاحبها لسنوات، سُلِبت منه حريته التي لم يكن يملك أغلى منها.

إن قراراتنا الشخصية هي العامل الأهم في كل النتائج المترتبة على تلك القرارات، وقد تكون- في بعض الأحيان- لحظة اتخاذ القرار أهم من النتائج التي ستترتب عليه مهما كانت شدتها، وهذا ما حصل لصديقنا 101.

لقد دفع ثمن قراره بالبقاء في بلدته وتصوير مجريات الأحداث لعله من خلال الصورة والفيديو والكلمة، يوقفها إذا ما تم نقلها إلى العالم خارج بلدته. هذه كانت أمنيته، والسجن كان عقابًا لأمنياته.

حسن قصاص ..

كانون الثاني- يناير ٢٠١٦

كنت في طريقي إلى بوابة الطائرة التي ستقلع بي من مطار برلين إلى مطار أوسلو، عائدًا من رحلتي الأولى إلى ألمانيا، هذا البلد الجميل، والذي سافرت منه إلى النمسا للقاء صديقي حمزة لقضاء ليلة رأس السنة عنده، في مدينة نمساوية حدودية مع ميونخ الألمانية، كان الوقت ليلا، فأنا أحب سفر أثناء الليل.

تقدمتُ من حاجز التفتيش الأول ووقفت في طابور إفراغ الممتلكات في الدروج لتمر على جهاز التفتيش، ثم من خلال هذه البوابة سنتجه إلى بوابات الطائرات التي تنتظرنا، مرورًا بالسوق الحرة وكل ما تحويه من أقسام ومحلات.

كان المطار بشكل عام يعج بزواره، وقت رأس السنة والناس في زيارات لبعضها.

***

كان هناك شاب واقفًا أمامي في الطابور، بدا عليه أنه في الثلاثينيات من عمره، شكل ذقنه المحفوفة بعناية، وشعره الذي بدا على أطرافه الشيب يبرهن ذلك.

يرتدي معطفًا شتويًا رمادي اللون، وحذاء أسود، وبنطالًا من الجينز أزرق اللون. يحمل حقيبة جلدية بنية اللون في يده اليمنى، وعلى ظهره حقيبة سوداء رياضية. ويضع يده اليسرى في جيب بنطاله الأيسر. كان كثيرًا ما يضع حقيبة اليد على الأرض وينظر إلى هاتفه الخلوي. إما ليكتب لأحد ما، أو ليتفقد صفحته الشخصية في فيسبوك.

لا أحب التلصص على الآخرين ولا من عاداتي، أنا فضولي نوعًا ما، ولست متلصص يحب اختلاس النظر لأشياء غيره، ولكنه كان يقوم بذلك أمام عيني، فبشكل لا إرادي نسقط أعيننا أحيانًا على ما لا يعنينا. كثيرًا ما كان يتلفت حوله وكأنه يترقب حدوث شيء ما، أو على الأقل بدا عليه واضحًا تعب وأرق السفر.

فكنت ألمح وجهه كلما أعاد النظر إلى بقية الطابور خلفه. اقترب للأمام بعد أن أُفسح المجال لمسافر آخر أن يقترب من البساط ليضع أغراضه لتذهب إلى نفق جهاز الكشف والفحص.

وعندما حانت اللحظة المناسبة ليفرغ حقائبه من الأشياء المعدنية والإلكترونية ليضعها في درج نايلون رمادي اللون، وضع حقيبة اليد التي كانت في يده اليمنى قرب البساط الإلكتروني، وأخرج يده اليسرى من جيبه راغبًا في استخدام كلتا يديه ليمسك الحقيبة ويفتح سحابها العلوي، ومن ثمَّ إفراغ محتوياتها.

وكانت هنا اللحظة الحاسمة لفضولي؛ أثناء سحبه ليده من جيبه، سقط من جيبه الأيسر شيء ما على الأرض. لم ينتبه هو لسقوطه، وتابع إفراغ حقيبته.

لقد رأيت شيئًا مشابهًا تمامًا للقطعة الواقعة على الأرض، وأستطيع القول أنه كان لدي، يومًا ما، قطعة مشابهة تمامًا لهذه. لكن من أين له الحصول عليها؟ بالتأكيد من نفس المكان. فمكان تواجد مثل هذه القطع محدود حسب علمي.

فاقتربت أنا بدوري منه لأكون أقرب إلى البساط، ولأقول له أن شيئًا ما قد سقط من جيبه.

فقلت له باللغة الإنكليزية : لو سمحت؟

أدار وجهه ناحيتي وأجاب بلغة إنكليزية " نعم، هل أستطيع مساعدتك؟".

"شكرًا، أردت فقط أن أقول لك أنك قد أوقعت شيئًا من جيبك على الأرض".

استدار نحو جهته اليسرى وهو ينظر إلى الأرض. ثم انحنى محاولًا التقاط ما سقط من جيبه، ثم نهض، واستدار ثانية نحوي وقال: "شكرًا لك، أحمد الله أنك هنا. كنت سأتابع بالطبع طريقي دون ملاحظة هذا، شكرًا مرة أخرى".

ثم ورده اتصال هاتفي، فتحدث باللغة العربية، وقال أنه سينهي أموره ويتصل بعد قليل.

بدأت أنا بوضع أغراضي بالدرج ومنها حاسوبي وكاميرتي وقلادة فككتها من حول عنقي، أهدتني إياها والدتي قبل أن أسافر إلى النرويج، وساعتي، فحزام البنطال، قائلًا له باللغة العربية: "لا داعي لشكري، كلنا لدينا أشياء مهمة يصعب علينا ضياعها".

ثم بدأ هو الآخر بإفراغ حقيبته. كانت تحتوي على كاميرا وحاسوب محمول وبعض التوصيلات والمفاتيح وساعة يد. وقال وهو يضحك:

"من الصعب معرفة لغة الآخرين دومًا. بالفعل، أصبت. إنها تعني لي الكثير".

فبادرته بالقول: "إن الأماكن التي يحصل فيها الإنسان على شيء كالذي معك، قليلة، بل تكاد تكون وحيدة". لحظت عيناه وهو ينظر نحوي: "هل معنى هذا أنك تعرف من أين حصلت عليها؟".

"بالطبع، لقد كان لدي واحدة منها، لكنني الآن، لا أعرف عنها شيء". وسكتنا في لحظة واحدة ونحن نتبادل نظرات توحي أننا فهمنا بعضنا جيدًا. ثم قمنا بالمرور من باب التفتيش المخصص للبشر وتركنا حقائبنا المفرغة في أدراج ستلحق بِنا على بساط التفتيش الإلكتروني. ثم اجتمعنا مجددًا عند نهاية البساط لنقوم بتسلم أغراضنا ومن ثم التوجه نحو بوابة الطائرة. أو هكذا كانت نيتي، لكن سرعان ما تتغير الخطط والأقدار فور بدء حدوث الأشياء الغريبة وغير المخطط لها. فهي تستمر فور بدئها ولا تتوقف، دومًا، عندما نريد.

***

وقفنا بجانب بَعضنا نستقبل الأدراج وما تحويه من أغراض، وبدأنا بلبس الأحزمة حول البناطيل.

ارتديت العقد حول عنقي، فارتدى هو ساعته ووضع الموبايل في جيبه، ثم ارتديت ساعتي، فارتدى طوقًا في عنقه هو الآخر، لم ألحظه يخلعه قبل باب التفتيش عندما كنا بقرب البساط، ثم حمل كل منا حقيبته بعد أن أعاد ملأها بأشيائه. كانت لدينا نفس المحتويات تقريبًا. يا لها من بداية صدف لم تتوقف بعد.

فسألني بكل أدب: "هل تحب التصوير؟".

فقلت له: "لدي هواية تصوير، فآخذ كاميرتي معي أينما سافرت، إذ في الحقيقة يمكن اعتبارها عينًا ثالثة لا تنسى، وتوثق لك لحظات قد تنسى تفاصيلها عيونك ومخيلتك، فنجدها في كارت ذاكرة صغير، تخيل؟!".

ومن ثم قال: "وأنا أيضًا لدي نفس الانطباع عنها. سأتجه نحو بوابة الطائرة التي ستقلع بعد أكثر من ساعتين بقليل، إلى مدينة باريس. أين وجهتك؟". فقلت له بدوري: "إنني متجه إلى بوابة طائرة متجهة بعد ثلاث ساعات إلى المدينة التي أقيم فيها حاليًا أوسلو".

وقفنا في ساحة السوق الحرة حيث محلات المشروبات والأطعمة والألبسة والروائح وغيرها، فقال موجها كلامه لي بينما كان ينظر إلى ساعته: "هل سبق أن سألتك عن اسمك؟".

"لا يا صديقي، ولا أنا فعلت، هكذا هي لقاءات المطارات السريعة! اسمي حسن، من سوريا ومقيم في النرويج من سنة ونصف تقريباً. وأنت؟".

قال لي إسمه الكامل ومن أي البلاد ..

"شعب سوريا الطيب، لعن الله الظالمين، أشعر بالسوء الشديد حول ما يحدث في بلدكم".

"شكرًا لك، هذا لطف منك، ولكن بلدكم هو الآخر عانى، في يوم من الأيام، تقريبًا، ما هو مشابه لما يحدث في بلدي الآن، ألم يمر بمرحلة كهذه؟ وأشعر أن لديك ما تخبرني بِهِ عن تجربة بلدك، بدليل ما تحمله في جيبك الآن؟".

حاول تجاهل، بشكل ما، جملتي الأخيرة، ثم بدأ الالتفات حوله ..

"جميل هذا البلد. أعجبني .. هل هذه زيارتك الأولى؟" قال لي هذا محاولًا قطع الصمت. فقلت: "نعم إنها الأولى. وماذا عنك؟".

"أيضًا الأولى".

"اعتدت الحياة في أوسلو، لكني لا أنكر أن برلين أعجبتني. أحب الأماكن المزدحمة بالسكان".

"وأنا أيضًا أجد نفسي مرتاحًا في باريس. مدينة عصرية، كما تعرف".

"صحيح. قرأت بعض الكتب المترجمة من الفرنسية. فعلًا لديهم أدب وثقافة جيدين".

***

كنّا نمشي وسط الناس الكثيرة التي تدخل وتخرج من المحلات، وكان صديقنا كثيرًا ما يلتفت حوله محدقًا في وجوه الناس من حولنا تارةً، وفي المحلات تارة أخرى.

"هل تسمح لي بسؤلك عما إذا كنت متزوجًا يا حسن؟".

"طبعا يمكنك ذلك، لقد سألتني، لا، لست متزوجًا، على الأقل ليس بعد، ولكنني على علاقة بفتاة في النرويج، قد تفضي لزواج ما في المستقبل، لكن ليس الآن، لا أحد يعرف كيف تصبح الأمور، وأنت؟".

"إني في طريقي لملاقاة خطيبتي في باريس، سنذهب معًا إلى مدريد، وهناك سيكون زواجنا بعد شهر. نعرف بعضنا منذ الطفولة".

"مبروك، خبرٌ سار. هل ستقيمان في مدريد؟".

"في الحقيقة، لا، نقيم الآن في باريس. العرس سيقام في مدريد، في أحد المطاعم التي يملكها صديق والد ماريا، خطيبتي اسمها ماريا. أخبرني ماذا تفعل في النرويج، كيف وصلت إليها؟".

"لازلت أتعلم اللغة النرويجية ولدي بعض النشاطات الكتابية والشعرية أحيانًا، أكتب الشعر والقصة القصيرة في فيسبوك، منصتي الحبيبة. لقد قدمت إليها من لبنان. تقدمت بطلب لجوء في مكتب مفوضية اللاجئين، وكانت النرويج تهم بنقل حصتها من اللاجئين، حسب اتفاقات ما، ليقيموا في النرويج، وكنت أحد المنقولين".

"لقد سمعت عن هذه الاتفاقيات مؤخرًا، بعد غرق الكثير من الأبرياء".

"من المؤسف رحيل هؤلاء البشر بهذه الطريقة البشعة".

"إذا أنت كنت من نوع من يقولون أن النرويج بلد بارد؟!".

"بإمكانك القول، كاتب شاب، يسعى لتحقيق السلام حول العالم، يكفي ظلم، ليس بهذه البرودة، لدى النرويجين مثل معروف: ليس هناك طقس سيء، بل ملابس سيئة، القصد منه حسب فهمي له أن يرتدي الناس ملابس سميكة دافئة، فيتجنبون بذلك البرد".

فضحك فور سماعه هذه القصة وأخبرني: "إنها المرة الأولى التي أسمع فيها قصة كهذه عن شعب الفايكينغ!".

***

تمشينا قليلًا في السوق الحرة في اتجاهات مختلفة ونحن نتبادل أطراف الحديث، وقد اقتربنا من مطعم مشهور.

فقال: "سيكون لدينا بعض الوقت نقضيه هنا، ما رأيك؟ ولقد تعبت من المشي، ويسعدني دعوتك لتناول شيء ما معي، سأكون مسرورًا لو شاركتني!".

فقلت له: كنت سأقوم بفعل ذاك ودعوتك لولا أنك استعجلت وسبقتني، بكل سرور، فأنا لازال لدي الكثير من الأسئلة عن الشيء الذي وقع منك!". نظر نحوي باستغراب وقال: "ألم تنساه؟".

"في الحقيقة لا، وأحاول انتهاز الفرصة لفتح حديث ما عنها، ولكنني لا أعرف إن كان بدء حديث كهذا سيناسبك الآن، لن يكون بهذه السهولة، وأتفهم ذلك جيدًا".

"أنت متحدث لطيف يا حسن. يرتاح المرء للحديث معك فور رؤية هذه الابتسامات التي تطلقها كلما مرت بقربنا فتاة. تفضل!".

فضحكنا.

***

دخلنا المطعم ووجدنا لأنفسنا طاولة في زواية من المطعم قريبة من البار. قمنا بخلع معاطفنا وعلقناها على الكراسي ووضعنا حقائبنا حولنا، وطلبنا الهمبرغر وبيبسي، وأخذ صديقنا لنفسه قنينة مياه معدنية.

فقلت :"كما قلت لك قبل لحظات، لدي صديقة تنتظرني في أوسلو، وهي تغار جدًا من مثل هذه الحركات، لكني لن أخفيك سرًا؛ أقوم الآن بكتابة ديوان اسمه (لكل أنثى) لقد بدأت به قبل فترة من الزمن، وسيكون جاهزًا، حسب نيتي، في منتصف العام القادم للنشر، وهذا يعني بالضرورة أن تثير انتباهي كل فتاة جميلة، أو حتى رجل كبير في السن، طالما أنني في حدود الاحترام أتبادل معهم ابتسامات.

أفعل هذا في وجوه كل المارة، صديقتي تعرف بهذا، وبعض المرات تفلح الابتسامة في فتح حديث لا يغلق أبدًا .. كهذا".

"صحيح. بطريقة ما، إن هذا العالم بحاجة لمثل هذا النوع من التواصل، حتى لو كان من بعيد، فهو يشعر المرء بوجوده أولًا، وأن هناك من ينظر نحوه بابتسامة. لا خوف من ابتسامة عابرة. هل لي أن أسالك كيف عرفت ماهية الشيء الذي وقع مني؟".

وصل وقتها طلبنا محمولًا على صينية، فانتظرت حتى انتهى الكرسون من عمله، وارتشفت من تنكة البيبسي بعد أن فتحتها، ثم نظرت إلى صحني الذي يحتوي على ثلاث قطع فروج مع بطاطا مقلية بقربها، ثم قلت: "أعتقد، إن مثل هذه الأشياء لا تتواجد بكثرة في أماكن معروفة. يتداولها الناس في أماكن متشابهة في كل زمان ومكان. ومهما اختلفت الأماكن، تبقى الإرادة وحدها، متشابهة".

"لقد أعطاني إياها صديق لي. اسمه جورج، من بلدي، من العاصمة. هل تحب الفروج؟" ثم فتح قنينة الماء ليشرب.

فسألته: "هل أنت بخير؟ يمكننا التكلم عن الفتيات مجددًا، أو عن التقاط الصور!".

فقاطعني : " لا عليك. يجب علي التعامل مع هذا طيلة بقية حياتي، هل تحب الفروج؟!".

"لا، بالطبع لست مجبرًا .. إنها الإرادة صديقي، نعم أحب الفروج! ويبدو أنك لا تأكل اللحوم!".

"نعم، لقد توقفت عن أكلها منذ شهور فقط. لقد كانت أيامًا صعبة. لما لا نأكل الآن وننهي طعامنا ونحن نتحدث عن سبب قدومك إلى برلين؟".

"بالطبع نستطيع فعل ذلك، لقد جئت لأقابل صديقي الذي كان يدرس معي في جامعة بيروت العربية قبل سنتين. هو فلسطيني الأصل، لكنه ولد في سوريا وعاش فيها طيلة حياته حتى دخل الجامعة وانتقل إلى بيروت. كنّا ندرس معًا في قسم اللغة العربية".

"وكيف حاله الآن هنا، هل أحب أوروبا؟".

كنا نأكل ونتحدث. نأكل ونتحدث.

"سأجيبك فور أن تقول لي ماذا تفعل أنت هنا؟".

"هههههه، بالطبع كنت سأفعل، لقد جئت شاهدًا على المرحلة التي مرت بها بلدي، وأدلي بشهادتي أمام مجلس الاتحاد الأوروبي في

بروكسل، ثم جئت مع صديقي إلى برلين لتمضية رأس السنة، وبعدها أعود الى باريس لأتابع تحضيرات العرس مع حبيبتي ماريا وعائلاتنا، لقد انتقلنا للعيش في باريس قبل سبعة شهور".

فقلت: "نعم، إنه سعيد بتجربته، اسمح لي تسميتها تجربة، أحب تسمية الهجرة، والسجون، والدراسة وغيرها بالتجارب لقرب نتائجها من نتائج التجارب العلمية، وماذا تعمل في باريس؟".

"بالطبع، سمها ما شئت، حصلت على عمل في مجلة فنية يديرها رجل من بلدي. والدي يحمل الجنسية الفرنسية وقد انتقلت مع والداي وأختي إلى باريس بعد خروجي...".

علق نهاية كلامه بالفراغ وسكت. بدا عليه الارتباك والحزن والضيق.

فتح أزرار القميص الأسود الثلاثة العلوية ...

"أحب القمصان السود!" قلت ذلك له لأقطع السكوت.

فأجاب وهو يمضغ سلطة الخضار التي طلبها: "اللون الأسود رمز الأناقة، باعتقادي".

فعمدت إلى مضغ لقمتين بسرعة، وعدت لنقطة نهاية حديثه عن خروجه الذي فهمته: "لا داعي لأن تكمل خروجك من أين، فهمتك. لم أكن سوى في حاجة لكلمة كهذه حتى تكتمل الصورة في مخيلتي". أزاح الصحن من أمامه إلى منتصف الطاولة وسند بيده على الطاولة وبدا هادئًا بعكس ما كان عليه قبل لحظة.

"هل تتحدث غالبًا عن هذه التجربة؟ أقصد كما تسميها".

"لا أمل من الحديث، بشكل عام أقصد، أحب التحدث كثيرًا وفوق العادة. الفيلسوف أرسطو فعل ذلك في بداياته، فن المحادثة، وعندما يتعلق الأمر بالتجربة التي تقصدها، فإنني أحب أن أتحدث أكثر، فالتحدث هو الشيء الوحيد الذي نفع معي. ولقد قلت لي أنك كنت شاهدًا قبل أيام على ما حدث في بلدك، أوليس هذا نوعًا من التحدث؟".

"بلى، هذه شهادتي الأولى. لم أكن الوحيد. هل أخبرتك أنني كنت أعمل صحفيًا في بلدي؟".

"لا، لكنك فعلت لتوك".

"حسنًا، إذا أنت تعرف الآن أنني صحفي. وبقي عليك تفهم الأمر وخلفيته".

"لكن لدي انطباع واعتقاد، أن هذا لا يكفي لأعرف شيئًا عن جورج، الذي أعطاك إياها، أليس كذلك؟".

نظر نحو ساعته وقال: "حفظت اسمه جيدًا! لقد بقي أقل من ساعة على موعد الطائرة، ربما نكمل حديثنا بوقت آخر. هل لي برقم هاتفك أو حسابك على فيسبوك؟".

"نعم، بكل تأكيد".

ثم أعطيته حساب فيسبوك وأرقام الهواتف التي يمكنه الاتصال بي عليها وقتما شاء. وقام بدوره بتسجيلها بهاتفه النقال، دون أن يعطيني أي معلومات عن طريقة التواصل معه. ولم أطلب بدوري ذلك.

ثم قلت له: "هكذا أفضل، فلربما نحول الأمر ليس فقط إلى مجرد محادثات".

"ماذا تقصد؟!" مبديًا الاستغراب والتعجب مما قلت له.

"أعني، أننا ربما نستطيع أن نحولها إلى رواية أو قصة، ربما أكتبها بطريقتي. ستكون أولى رواياتي بعد الديوان، لنقل ستجهز للنشر في عام 2018! أعدك".

"هل تعي ما تقول؟ لا أظن بهذه السرعة".

"أنا معروف في النرويج بكتابتي ليومياتي التي أعيشها في حياتي. وسأحب جدًا فعل هذا، لو كان الأمر يناسبك!".

"لما لا نتحدث في هذا الأمر غدًا؟ أنت من أوسلو وأنا من باريس. يحتاج التحدث عن الأمر لساعات طويلة".

"وأنا على أتم الاستعداد لإعطاء الوقت اللازم لسماع كامل القصة، ولكتابة كل ما تريد قوله".

"ليس من السهل فعل هذا، انسَ الأمر".

"لما لا نقوم بذلك على دفعات؟ وبالطريقة التي تناسبك حتمًا".

"حسن، لِمَ لا نتفق على ذلك لاحقًا، سأفكر في الأمر وأناقشه مع أهلي والمرأة التي ستصبح زوجتي عما قريب، ما رأيك؟".

"خذ الوقت الذي تريد، أنا جاهز دومًا لهكذا نوع من القصص بالتأكيد ليس لدي مانع".

"هيا بِنا إلى بواباتنا، سأكون سعيدًا لو سمحت لي بالدفع، طالما أنني أنا من وجَّه الدعوة".

"فليكن لك ذلك".

نهضنا معًا وارتدينا معاطفنا، وحملنا حقائبها وسرنا نحو البوابات.

فقال: "لقد كان من الجميل جدًا الالتقاء بك صديقي".

"ولدي نفس الشعور تجاه لقائك، ليس من المعتاد أن تبدأ اللقاءات بتلك الطريقة، وتنتهي بهذه الطريقة. أليست تجربة تستحق الكتابة عنها؟ تبدو غريبة من بدايتها حتى الآن؟ وأثق بنهاية جيدة. على فكرة أحب النهايات السعيدة".

"وأنا أيضًا، يا حسن، هناك الكثير من الأحاديث التي أود نقاشها معك، وهذا نادرًا ما يشعره المرء بعد مدة من معرفته لأناس جدد، ولكنه تولَّد برفقتنا بفترة قصيرة".

"اعتنِ بنفسك. وأنتظر بفارغ الصبر حديثنا".

"وأنت أيضًا. سنتحدث بكل تأكيد".

"هل يمكنني الكتابة عن هذا اللقاء السريع؟ حتى وإن لم ترِدْ حكاية القصة، أقله أن أحفظ ما تحدثنا به بطريقة جميلة؟".

"يا لك من شقي، سأترك لك حرية الاختيار، لكن إن قررت فعل ذلك، أرجو أن لا تقوم بذكر اسمي، أو أسماء أهلي، هل يمكنك هذا؟".

"بالطبع يمكنني، سأكون سعيدًا بهذا. وماريا؟".

"هناك ألف ماريا في العالم يا حسن!".

"شكرًا صديقي".

"سنتحدث، انتبه لنفسك. ودفئ نفسك جيدًا، أيها الفايكينغ".

"وأنت يا من تفوح منه روائح فرنسية".

عانقنا بَعضَنا وكأننا نعرف بَعضَنا منذ سنوات.

***

مضى هو إلى بوابة الطائرة التي ستقله إلى أهله وحبيبته في باريس. وأنا ركبت الطائرة في نفس الوقت متوجهًا نحو أوسلو، حاملًا معي كثير من الأشياء التي كنت أودّ الحديث معه عنها أكثر من ذلك. شيء ما بداخلي، تركه سقوط تلك القطعة، كما أودّ تسميتها من الآن، من جيبه عند مدخل التفتيش.

انطلقت منذ دقائق طائرة صديقي الوسيم، حسبما سميته.

جلست أنا في ردهة انتظار الطائرة مستعملًا هاتفي لكتابة ما جرى بالتفصيل الذي استطعت تذكره، كي لا أنسى أي شيء مما ذكره صديقنا.

قد لا أحتاج شيئًا مما كتبته الآن، وقد يرفض الفكرة، لكنني على الأقل أملك الآن نصًا تذكاريًا مكتوبًا عن هذا اللقاء الجميل. ليتني أخذت صورة معه في مكان لقائنا. يا له من نسيان!

***

أواخر كانون الثاني ٢٠١٦

كنت قد توقفت عن الكتابة عندما حان موعد الطائرة التي سترجعني إلى أوسلو .. صعدت الطائرة وجلست في مقعدي.

أعدتُ قراءة ما كتبت، وأكملت كتابة ما نقص في المرة الأولى. وعمدت إلى إصلاح بعض الأخطاء الإملائية التي حصلت نتيجة سرعتي في الكتابة خوفًا من نسيان أي شيء من المقابلة الأولى، ثم أعدت قراءة ما كتبت مجددًا للمرة الأخيرة، ووضعت هاتفي في جيب جاكيتي الداخلي، وغرقت في النوم.

استفقتُ على صوت ربان الطائرة يهنئنا بالوصول سالمين، ويتحدث عن إجراءات السلامة لهبوط سليم.

***

حطت الطائرة بي في مطار غارديرمون بالقرب من أوسلو. لا حاجة لأختام وصول، فالقادم من بلد أوروبي ضمن بلاد الشينغن لا يحتاج لذلك.

استقليت القطار إلى محطة قطارات أوسلو، ثم استقليت الباص الأحمر الطويل إلى بيتي الكائن في وسط أوسلو في منطقة كارل بارنش بلاس.

لم يتصل صديقي الوسيم اليوم كما قال، ولم أكن قد حصلت منه على رقم هاتفه أو حسابات فيسبوك.

تفقدت قائمة طلبات الصداقة، فلم أَجِد طلب صداقة جديد يحمل صورته أو اسمه حتى، ولم يكن لدي أي رسائل من حسابات لا أعرفها في هذا اليوم.

حاولت البحث عن اسمه في محرك البحث غوغل، فوجدت عدة حسابات شخصية تحمل نفس الاسم. هذه عادة فيسبوك، يعطيك احتمالات لا تجد غالبًا ضالتك فيها.

كان هناك صفحات عامة باسمه، تتحدث عنه وعن ما تعرض له خلال السنوات السابقة لفترة لقائنا. كانت جميع الصفحات تندد وتستنكر هذا الأمر الفظيع. وكان هناك صورًا قديمة منشورة في هذه الصفحات، كان يظهر فيها شاب هزيل الجسد وعيناه غائرة في حفرها.

أصابني الذهول والجمود من هذه الصور والمنشورات التي قد مضى عليها قرابة سبعة شهور. هل هذا هو؟

ثم تابعت حياتي كما المعتاد أذهب إلى مدرسة اللغة وأعود إلى بيتي. أفتح الحاسوب، ثم أجلس على كرسي طاولة الطعام ... أتفحص الأخبار القادمة من الشرق الأوسط المنكوب.

***

لم يصل شيء، ولم يتصل صديقي. هل قام بذلك عن رغبة تامة وسابق تعمد في عدم الاتصال؟ ألذلك لم يعطِني رقمه؟ أم أنه مشغول بإخبار خطيبته وأهله عن رحلته؟! لا أعرف، ولن أطلق العنان لتكهنات قد تكون خاطئة فيما بعد. سأنتظر، وفقط سأنتظر. في كل الأحوال أنا أتابع حياتي بشكلها المعهود كما كانت قبل لقائه.

بقي الحال كذلك حتى نهاية شهر كانون الثاني ... لا رسائل ولا اتصالات، ولا أعلم عنه شيئًا. أصابني خلالها حرقة الانتظار ومرارته. بنفس الدرجة التي أصابتني وقت كنت في بيروت، وأنا أنتظر جواب حكومة النرويج إن كانت ستقبلني كلاجئ أم لا.

لم يعد يعني لي كثيرًا هذا الوصف (لاجئ). بدأت بتحدث اللغة النرويجية بعد شهور قليلة من وصولي إلى أوسلو، ومع ذلك بدأت قدرتي على التعبير عن نفسي، وبهذا استطعت التعرف على عدد لا بأس به من السكان هنا، بمختلف الجنسيات، ولي بعض المشاركات الشعرية بين الحين والآخر.

لدي راتب شهري، لقاء ذهابي إلى مدرسة اللغة، ضمن برنامج يسمى البرنامج التمهيدي، ولدي شقتي الجميلة التي انتقلت إليها بعد سبعة شهور من تواجدي هنا.

لم تكن أعمال صيانتها قد انتهت وقت وصولي، فسكنت مؤقتًا في فندق مخصص لمثل هذا الحالات مع آخرين كثر ممن نقلتهم الحكومة النرويجية من لبنان وتركيا والأردن.

كنت أقوم بعض المرات بفتح تلك الصفحات التي توقفت عن النشر قبل شهور. الغريب في الأمر توقفها كلها تقريبًا في نفس الوقت. كلها تقريبًا توقفت عن النشر في نيسان، وبعضها في أيار من عام 2015. وبقيت على هذه الحال بقية شهر كانون الثاني.

***

الأحد ٣١-٠١-٢٠١٦

استفقتُ صباح يوم الأحد وهو يوم عطلة رسمية في النرويج، أعددت قهوة الصباح، وأخذت لنفسي حمامًا بينما جهزت القهوة، وشغلت أغاني فيروز، ثم فتحت حاسوبي كما هي العادة لأتفقد الأخبار.

لأجد رسالة على ماسنجر فيسبوك مكتوبة بلغة عربية .. جاء فيها:

"عزيزي حسن،

لقد مضى الآن على لقائنا الأخير قرابة الثلاثة أسابيع، كما تعلم، كنت على موعد قريب من يوم زواجنا. حين التقيتك، وفور عودتي إلى باريس أخبرت ماريا عما حدث، وكان وجهها يشير إلى استغراب كبير من هذا اللقاء وباقي تفاصيله، وأخبرت عائلتي أيضًا في نفس المساء عن العرض الذي قدمته لي حول كتابة قصتي، لكنهم لم يعطوا أي إشارة تنم عن موافقة أو رفض، فتركت لهم الوقت للتفكير.

وبعدها انشغلنا بالتحضير للعرس في مدريد، وأنت تعرف بالطبع كم من الوقت يحتاج أمر كهذا. كنت أودّ حقيقةً دعوتك وصديقتك

لحضور العرس، لكنني تعمدت عدم فعل ذلك، وستعرف السبب في قادمات الأيام. ثم قبل العرس بثلاثة أيام، ذهبنا جميعنا إلى مدريد لمتابعة التجهيزات في المطعم وفي الفندق الذي كنّا نخطط الإقامة فيه. كل شيء كان جميلًا ومبهجًا للجميع، أو هكذا كنت أظن.

ثم جاء يوم الاحتفال ... ارتديت بدلة سوداء، تعرف رأيي في اللون الأسود، وارتدت ماريا فستان عرس أبيض، كأي عروس جميلة. كانت في قمة جمالها، لم أرَها في هذا الجمال من قبل.

حضر الضيوف في الأوقات المحددة، وأخذ الضيوف بالانتشار على طاولاتهم المخصصة لهم، والمكتوب عليها اسماؤهم، وبدأت الحفلة.

ثم دخلنا إلى الصالة أنا وماريا، وأطفال حولنا يجرون ثوب العروس الجميل، ثم جلسنا في مكاننا المخصص لنا ... ثم كان هناك الفرقة الموسيقية وفرقة رقص، دعاهم والد ماريا.

كل شيء كان يحدث حسب ما هو مخطط. لن أكذب عليك، كان عرسًا جميلًا. سأرسل لك في وقت لاحق صورًا من العرس. أعرف أنك وبشدة، تود رؤيتها. لك ذلك صديقي. لكن ليس في الوقت الحالي، فالأمور تتجه لأماكن لا أعرفها.

وفي النهاية : أعتذر عن عدم اتصالي بك في اليوم التالي ليوم لقائنا، وأعتذر عن عدم دعوتك لحضور العرس. ستفهم كل شيء في وقته. أتمنى أن تفهمني وأن تكون بكامل صحتك، وأنك مازلت تبتسم للفتيات والمارة وللحياة. سأكتب لك قريباً".

صديقك الجديد

باريس 30-01-2016

هذا كل شيء وصلني من صديقي الذي انتظرت منه رسالة أو اتصال، منذ ما يزيد عن ثلاثة أسابيع. موقَّع بتاريخ البارحة ليلًا. يجب علي تفهم هذا الأمر، كما تمنى مني وعلي.

لا مشكلة في ذلك .. "الغائب عذره معه" .. هكذا تربينا.

هل يجدر بي الرد على هذه الرسالة؟ هل أعاتبه على التأخير؟ لا، لن أفعل ذلك. سأحاول جاهدًا أن أكون متفهمًا لكل ما يحدث، وما سيحدث، لكنني سأعاتبه على ذلك يومًا ما.

سأؤجل الرد على رسالته هذه الآن، وسأخذ الوقت الكافي لكتابتها. سأمضي لرؤية أصدقاء لم أرهم منذ مدة، ويجب أن أرتدي ملابسي، وأن أمضي في طريقي نحوهم بعد قليل.

***

الإثنين ١٥-٠٢-٢٠١٦

لقد مضى أسبوعان على تلقي أول رسالة من صديقي الجديد. أظن أنني أعرف الآن كيف سأرد عليه. على الأقل حضرت بعض الكلمات لعلها تناسب. وتكسر حاجز المعرفة السريعة. لا بد لي من ذلك. كان لدي بعض الأعمال التي كانت تشغل بالي ولا يمكن تأجيلها. سأخبره عنها، بالطبع سيتفهم ذلك. سأكون واضحًا ومختصرًا قدر الإمكان.

انتظرت حتى انتهاء الدوام في مدرسة اللغة، وفور انتهائي من تحضير الغداء وأكله، قررت البدء بكتابتها، قبل أن تتغير الأمور.

***

"صديقي الوسيم ..

وأخيرًا وصلت رسالتك! كنت بانتظارها على أحر من الجمر.

كما كنت تنتظر رسالتي. قد يبدو لك للوهلة الأولى أنني أعاتبك على التأخر في الاتصال بي، أو الكتابة لي.

لا تسمح لنفسك الوسيمة بالتفكير بهذا أبدًا ... فأنا أقول ما في قلبي بدون أي نيات مبطنة أو عدائية أو أو.. إلخ. لكنني مؤمن بفكرة تقول: حجم العتب من حجم المحبة والمودة. ولولا أني أكن الإثنين، لما بدأت رسالتي بكلمة أخيرًا. قد تعني أحيانًا أنني انتظرت طويلًا، وليس معنى ذلك أنه قد تأذيت. لا على العكس، فأنا قضيت حياتي نصفها انتظار إجابات من الآخرين. ولا عيب في ذلك.

دعك الآن من الفلسفة التي بدأت بها. لقد فرحت جدًا ومن قلبي لوصول رسالتك محملة بهذه الأخبار الجميلة. لكن يبدو أنها ناقصة. سأتعامل مع ما أخبرتني به على أنه القسم الجيد في هذا الغياب، وأنتظر بعض التفاصيل لتكتمل الرؤية لدي.

أنا بخير وبحال جيدة. لا تقلق. أفعل ما علي فعله كل يوم .. من ذهاب إلى المدرسة وعودة وتحضير الغداء وغسيل ملابس وأطباق، ودفع فواتير. كله روتين. تعلم ذلك قطعًا وتعيشه أحيانًا.

أما بالنسبة للشق الجديد في حياتي:

بدأنا قبل شهرين ونصف أنا ومخرجة فلسطينية الأصل من الأردن، متزوجة من رجل نرويجي، العمل على فيلم وثائقي يشرح علاقة

المساجين ببعضهم، ويفسر القوة الكامنة وراء استمرارهم في الحياة أيام السجن.

أنت تعلم أنني كنت هناك، في سجون عدة، بدون أن أقول لك ذلك أنا، بدا أنك فهمت ذلك عندما أخبرتك عن القطعة التي كنت أملكها. بدت عيناك فاهمة لكل ما كنت سأقوله، وارتحت لفعلها ذلك. في الواقع لقد هونت علي الكثير.

لا شيء جديد يذكر غير هذا العمل. أقوم كما أخبرتك على انتقاء قصائد الديوان، وأقوم بكتابة قصائد غيرها كلما سنحت لي الفرصة.

الوضع يزداد سوءًا في بلدي، لا حلول في الأفق القريب، وأعتقد أنك كصحفي على اطلاع بكل ما يحدث هنا وهناك.

أتمنى أن تكونا في أفضل حال أنت وزوجتك. أنتظر صور العرس بفارغ الصبر وأن تسنح لنا فرصة ما، يومًا ما، برؤية بعضنا على الكاميرا.

مودتي .. حسن

أوسلو الإثنين 15-02-2016

أرسلت رسالتي من جهاز الحاسوب، وأطفأته.

***

السبت ٢٠-٠٢-٢٠١٦

مضت خمسة أيام على أول رسالة أرسلتها إلى صديقي الجديد. لم أكن في انقطاع عن فيسبوك. كنت أفتح حسابي مساء كل يوم بعد المدرسة وانتهاء الأعمال المنزلية. لم يصل شيء حتى صباح اليوم.

أمضيت طيلة يوم العطلة مع صديقي عمر. عمر من مدينة حمص السورية. كنا نقيم في بيروت، وندرس في نفس الكلية في جامعة بيروت العربية. تناولنا الغداء في أحد المطاعم الباكستانية في أوسلو. ثم عدت إلى البيت. الطقس ليس بالجميل جدًا، برأيي، ولا يصلح لرحلة قصيرة على كتف النهر الذي يمر من أوسلو.

***

عدت إلى البيت وقمت بغسيل ملابسي وكوي بعض القمصان التي كانت تنتظر من أيام، وقمت بمسح الغبرة من بعض الأماكن في المكتبة مثلًا والتلفاز، ثم قمت بإعداد كوب شاي أخضر وجلست على كرسي المطبخ الذي لا أستبدله عادة.

ثم فتحت حسابي على فيسبوك، فوجدت رسالة من صديقي ... كنت أنتظرها. جاء فيها:

"مرحبًا صديقي حسن ..

شكرًا لردك على رسالتي، وأيضًا تأخرت أنت بالرد علي. هو أمر طبيعي يحدث بدون الشعور بذلك. لن أقلق طالما أن رسالتك وصلتني، وسنعتاد على تأخرنا في الكتابة، أليس كذلك؟ وأعرف أنني أتأخر في الكتابة لك، لكنك ستسامحني فور أن أخبرك بظروفي لاحقًا.

أكتب لك الآن رسالتي الثانية من أثينا. لقد وصلت البارحة مع والدي بغية القيام ببعض العمل التطوعي مع الواصلين عبر البحر من تركيا. يا لها من معاناة ومآسي يعيشونها في هذا الوقت من السنة. الكثير من الدموع والآمال والمواجع .... والشرطة ليست بالحنان المطلوب، كما تعلم، تحدث استثناءات.

سأرسل لك اليوم في نهاية الرسالة صورة لي ولماريا. أعرف أنك تتوق لذلك. لقد تفقدت بالفعل صفحتك الشخصية، ووجدت أنك تكتب بالفعل كما أخبرتني عن يومياتك في أوسلو.

لم أفعل ذلك بدافع التجسس، كما كنت تفعل في المطار. هل كنت تظن أني لم أرَك؟! لكني لم أعر لذلك اهتمامًا، فهذا ما يحصل عندما يستعمل الشخص هاتفه في مكان يكون فيه أناس حوله، الجميع يريد معرفة الشيء الذي تقوم بفعله.

بكل الأحوال أعجبني بعض المنشورات التي كتبت، ولم أستلطف البعض الآخر .. حسب الموضوع. أعرف أنك فهمت ما أعنيه، وأي المنشورات أقصد. تلك التي في اعتقادي، لا حاجة لها ... أعني، في مثل هذه الأوقات. أتمنى أن تكون في حال جيد، وأنك تمضي الأوقات الجميلة برفقة صديقتك.

لقد تحدثت مرة أخرى مع ماريا في أمر القصة التي تريد كتابتها عن تجربتي تلك، وقد بدا عليها الارتياح، هذه المرة، أكثر من المرة الأولى عندما كنت واصلًا حديثًا من بلجيكا قادمًا من برلين.

كانت تظن وقتها، حسبما أخبرتني البارحة، أنني لم أكن مهيئًا لأخذ قرار كهذا، أنا العائد حديثًا من بلجيكا بعد إدلاء شهادتي، لأنني كنت مرتاعًا وخائفًا قبل السفر إلى بلجيكا. وقد خافت أن ترى هذه المشاعر مجددًا على وجهي.

لقد قدمت بكل الأحوال إفادتي، وحصلت على وعد منهم بإخفاء معلوماتي كشاهد، حفاظًا على حياتي، بشكل خاص، وحياة من أحب بشكل عام. وبعد نقاش ومحادثات طويلة، قررت التعاون معك على إتمام هذه القصة، أو سمها ما شئت. بإمكانك من اليوم تسميتي باسم (101). ستعرف لاحقًا سبب هذه التسمية.

لقد أحببت الخبر المتعلق بالفيلم الذي تزعمون إتمامه. فكرة عظيمة. تستحق الاحترام والمتابعة. أتمنى لكم التوفيق من كامل قلبي. ستشرح لي بالطبع لاحقًا حيثيات الفيلم، وإلا كيف لي بفهم القصة ببعض سطور؟ يا من يحب الأحاديث كثيرًا!

ولكن أودّ أولًا أن أقول لك أن ماريا تريد بكل سرور التعرف بك. قد نتحدث في عطلة يوم الجمعة العظيمة؟ سمعت أنه سيصادف يوم الجمعة 25-03-2016؟ ما رأيك؟ يناسب ذلك جيدًا جلسة سكايب مطولة. فكر مليًا بالأمر وأعلمني متى تفضل هذا اللقاء. وهذا هو حسابي سكايب...). أرجو أن تكون بخير دومًا.

مودة صديقك 101

أثينا .. السبت 20-02-2016

***

الخميس ٢٥-٠٢-٢٠١٦

الرد على الرسائل المشابهة لرسائل صديقي 101 ليس بالأمر السهل. فصياغة الجمل تحتاج لوقت، وحذر، حسب اعتقادي. ولِمَ لا؟ ألا يستحق شاب مثله أن يفكر المرء بكلماته قبل قولها؟ خاصة أنني لا أعرف الكثير عنه، وأنا أحاول تمرير بعض الجمل التي من شأنها تلطيف الجو، وكسر حواجز التأخر بالمعرفة. اسعى لتطوير الصداقة.

بين الحين والآخر كنت أعيد قراءة الرسالة وكتابة بعض السطور في جوابي، وكثيرًا ما كنت أبدل في الكلمات لتناسب بشكل ما كلماته.

وكالعادة، بعد انتهاء الواجبات المنزلية، بدأت بكتابة الرسالة. كنت قد وصلت إلى حد مقبول منها، وصلني مكالمة على واتسآب من والدتي. سنتحدث قليلًا.

تحدثنا قرابة ربع ساعة معًا، أستمتع بذلك، فأنا على علاقة جيدة جدًا بوالدتي. يمكننا التحدث عن أي شيء. لا شيء ممنوع، ولا شيء مستحيل ... نحن نحب النقاش والمزح.

ثم عدت إلى الملاحظات لأكمل كتابة رسالتي وإرسالها، يجب علي النوم باكرًا .. لدي الكثير لفعله غدًا.

***

"الوسيم 101 ..

خُيل لي وأنا أقرأ كلمة 101 أن يكون هذا الاسم عنوانًا للعمل الذي حدثتك عنه. لكن من المبكر جدًا الحديث عن الأسماء، في الوقت الحالي.

اليونان تعيش أوقات عصيبة وكذلك الدول المحيطة بها. لقد وصل الكثير من السوريين وغيرهم لاجئين إلى جزر اليونان قادمين عبر البحر من تركيا بعد هروبهم إليها. من المؤسف بالنسبة لي كسوري، أن أرى كل هذا الظلم الذي يعيشه شعبنا، جراء حاكم فاشي يتلذذ بقتل شعبه، ولسنا بشعبه.

بكل الأحوال، لقد قرأت الكثير عن الفلسفة اليونانية، وتعجبني اليونان بشكل خاص. لا تنسَ نفسك دون أن تكتشف المدينة وحواريها المرصوفة بالأحجار البازلتية التاريخية.

ولا تنسَ زيارة دلفي، فهي مكان يصلح للاستجمام ونسيان الذات قليلًا، ومنحها القليل من السكينة هناك.

بالنسبة للصورة الجميلة التي أرسلت، لقد أحببتها وأعجبتني جدًا، إنها بغاية البساطة. يعجبني هذا الأداء التصويري. أتمنى أن يدوم الحب بينكما، وأن يزهر بالسعادة والأطفال.

كان لدي قبل أسبوعين في 11-02-2016 محاضرة بالقرب من مطار أوسلو في فندق كلاريون. تم دعوتي عن طريق صديقي Baard وهو نرويجي الأصل. أحبه جدًا. سأخبرك عن الكثير فيما بعد. كنت سأخبرك أن انشغالي بها كان سبب تأخري في الرد على رسالتك. تعرف أنني لن أتأخر عنك. تحدثت فيها عن اللجوء ومشاكل الحياة، وأهمية اندماج القادمين الجدد، وكانت هناك رئيسة الحكومة النرويجية أرنا سولبرغ، وعدد كبير من الحضور. لقد قرأت شعراً كتبته باللغة النرويجية، مما أثار إعجاب الحضور والقائمين على المناسبة.

وبما أن ماريا قد أعطتنا الترخيص لبدء الحديث عن قصتك، التي لم تفتأ تشغل بالي، وهذا ما أسعدني جدًا قراءته.

كنت قد بدأت بسرد وقائع لقائنا السريع في برلين، وكنت أفكر بإضافة نصوص هذه الرسائل إلى النص السابق. لا أعلم. قد نحتاجها لاحقًا، ولكن الحاجة الكبرى هي للقاء الكاميرا.

يعجبني كتابة القصص وأنا أرى تعابير وجه من يقومون بإخباري بقصصهم، ثم تسجيلها وتدوينها بهدوء لاحقًا، فهي الطريقة المثلى، حسب رأيي، لفهم الحالة ثم كتابتها.

أما في ما يخص لقاء سكايب، فأنا موافق وبكل سرور. وهل يمكن لمحب قصص مثلي رفض هذا أو تأجيله؟!

يصادف يوم الجمعة هنا عطلة. صحيح. وفي المساء أكون وحيدًا. سافرت صديقتي بعيدًا، دومًا وإلى الأبد!

يؤسفني إخبارك أننا انفصلنا منذ أسبوع. لم يعد يناسبها العيش مع كاتب شاب، يشغل وقته بالقراءة والكتابة، والتدخين، حسب قولها. لقد أمضينا أوقاتًا جميلة، لكنها اختارت شابًا آخر .. هنيئًا لهما.

فالحب ليس حكرًا على أحد. لا أريد الحديث عن هذا أكثر في هذه الرسالة، ولكنك سألت وعلي إجابتك.

أتمنى لك قضاء وقتًا جميلًا في أثينا، وأنتظر لقاء سكايب الموعود رغم بعد المدة ... سيكون علينا الانتظار شهر من الآن. أظن أنني يمكنني الانتظار، وربما نتبادل الرسائل بين الحين والآخر لتقوية معرفتنا.

مودتي وتحياتي .. حسن

أوسلو .. الخميس 25-02-2016

***

محادثة سكايب الأولى .. الجمعة ٢٥-٠٣-٢٠١٦

كنت أنتظر هذا اليوم منذ شهر كامل لم تصلني خلاله أي إشارة من 101 ولا أية رسالة ولا أي خبر. بعثت له، خلال الشهر، رسالتين قصيرتين على فيسبوك، لكنه لم يجِبني. يبدو أن آخر ظهور له كان وقت آخر رسالة أرسلها لي من أثينا.

في المساء قرابة الساعة السادسة قمت بفتح حسابي على سكايب، ثم قمت بالبحث عن الاسم الذي كتبه لي آخر مرة، وبالفعل وجدت الاسم، فقمت بإرسال رسالة: "مرحبًا، أنا حسن"، وانتظرت قبوله لطلب الصداقة والرد على رسالتي، إن كان سيرد.

قاربت الساعة على الثامنة، وبينما كنت في المطبخ أحضر لنفسي كوب شاي، بدأت أسمع صوت طنين من الحاسوب المحمول الذي كان خلفي على طاولة المطبخ. التفتُّ مسرعًا نحوه.

كانت رسائل ترحيبية من 101 ردًا على رسالتي التي بعثت له قبل ساعتين، ثم قمت بالاتصال به فورًا.

كان هو وزوجته ماريا بثياب المنزل. لم يبدُ عليهم أي تحضير لنفسيهم من قبيل الملابس وتمشيط الشعر. يحمل 101 في يده كأسًا يشرب منه، وماريا تقوم بالتدخين. يعجبني هذا النوع البسيط من البشر.

تعرفت بماريا وأخبرتها عن نفسي وعن ما أنوي القيام به مستقبلًا، وبدورها قامت هي بتعريفي عن نفسها وعن علاقتها بصديقي 101، وكيف تعرفوا ببعضهم وهم صغارًا، ثم تزوجوا كبارًا بعد أن خرجوا من بلدهم، وأبدت تعاطفًا معي لخسارتي صديقتي، فأوضحت لها عدم حاجتي لمثل هذه الكلمات عنها وعني وعلاقتنا، وأن رأيي بالعلاقات كرأيي بالطعام، يأكل الإنسان ما يريد هو.

ثم اطمئنيت عن وضعهما وأخبراني عن تفاصيل العرس. لقد فهمت الآن ما قصد 101 في كلامه عن سير الأمور في العرس.

لقد أخبراني أنه وبينما كان الكرسون يهم بدفع عربة وضع عليها الكاتو ذو الطوابق الأربعة، اختل توازنه فانقلبت العربة لتصطدم بطاولة أحد العوائل المعزومة، مما سبب تدمير قالب الكاتو، وغضب العائلة ثم رحيلها بسبب تلوث الطاولة وملابسهم بالكاتو المتساقط عليهم جراء وقوعه فوقهم.

ثم سألت 101: "هل ستخبرني أكثر عنك؟ من أين أنت وشكل الحياة التي كنت تعيشها؟".

فقال وهو يشرب من كأسه، عرفت منه أنه البيرا المفضلة لديه: "تقع بلدتنا على بعد ساعة من العاصمة .. إلى الشمال منها .. هناك تربيت وترعرعت في كنفها. درست في مدارسها حتى الانتهاء من الثانوية، ولعبت في شوارعها، ورقصت في أعراسها. فيها جوامع وكنائس، وأناس من مختلف الأعراق والأجناس والأديان. يبلغ عدد سكانها 25000 نسمة. فيها ملعب كرة قدم كبير، كانت تقام فيه المباريات بين الحارات، أو المدارس. وفيها سوق كبير فيه الكثير من محلات الألبسة والأطعمة .. ما تشتهيها نفسك.

ولم أعرف مكانًا في العالم غيرها، إلى أن دخلت الجامعة. أستقل الحافلة في كل يوم دوام من وإلى الجامعة في العاصمة. كانت حياة الناس الذين يعيشون في العاصمة تختلف عن حياتنا التي كنا نعيش في بلدتنا. الحياة في العاصمة مليئة بالأحداث ... من الشوارع المزدحمة، إلى المطاعم الكبيرة إلى غيرها من البنايات العالية والحدائق المتعددة.

كنت أسافر كل يوم جمعة إلى البلدة، وأعود يوم الإثنين محملًا بأطيب الأكلات التي كانت تعدها أمي لي. الأرز والدجاج واللحم وغيرها. وكنت أحصل على راتب شهري من والدي كمصروف لي في الجامعة حتى لا أحتاج للعمل، وأن أقضي وقتي متفرغًا للدراسة.

في العاصمة كانت أولى علاقاتي الحميمية؛ حيث تعرفت بفتاة أحلامي، كما سميتها، كنا نقضي أجمل الأوقات معًا. وعندما كان يحين موعد زيارتي الأسبوعية لأهلي أحصل على ليلتي الحميمة الطويلة معها، لأني سأبقى بعيدًا عنها لأيام ثلاث.

لم تكن من العاصمة ... كانت من شرق البلاد، وتتكلم بلهجة شرق البلاد بوضوح تام. يا لها من لكنة جميلة! .. جعلتني أحبها. كان لها صوت جميل تتغنى به كل مساء، لم تكن تبخل علينا بصوتها أبدًا.

كانت فترة الجامعة بالنسبة لي بمثابة حياة جديدة، في طريقي نحو الحلم الذي لطالما راودني. أن أصبح صحفيًا.

درست في كلية الإعلام لمدة سنوات أربعة مثلي مثل كل الأصدقاء الذين كانوا معي طيلة السنوات هذه، ثم كان يوم التخرج العظيم سنة 2009. لن أنساه ما حييت.

في ذلك اليوم كان لنا احتفال عظيم في بيت أحد الأصدقاء، وكان كل منا مع حبيبته أو زوجته. كنا قرابة 20 شاب وشابة.

استأجر صديقنا صاحب البيت فرقة مطبخية لتقوم بطهي الطعام لنا، وفرقة موسيقية لإطرابنا ورقصنا. كان ميسور الحال جدًا. والده يعمل في سفارة البلاد في أحد دول أمريكا الجنوبية. بقينا نحتفل حتى ساعات الصباح الباكرة. شربنا الكثير من البيرا التي وصلت لصديقنا من بيروت.

صديقتي الجميلة كانت ملزمة بالعودة إلى مدينة والديها في شرق البلاد. فليس من داعٍ لتواجدها في العاصمة بعد انتهاء جامعتها، ومن غير المسموح، في ثقافة أهلها، أن تسكن خارج السكن الجامعي مع أحد بغير زواج. لم يكن أي منا مستعدًا لكل ذلك. نحن الخريجون الجدد لا نملك الراتب العالي ليضمن عيشة مستقرة، ولن يفلح الأمر بدون زواج، ولم تكن هذه الفكرة واردة وقتذاك.

كنت أتمنى من قلبي أن تكون زوجتي وأن أكمل العمر معها، ونخجب أطفالًا بجمال أمهم. لكن القدر لا يقبل المساومة. مضت هي في حال سبيلها إلى بيت والدها، وأنا بقيت في العاصمة.

أصبحت العاصمة مكانًا موحشًا في غيابها. لقد اعتدنا أن نأكل معًا، أن نذهب للعب البلياردو .. اعتدت صوتها الدافئ. بقيت أستمع إلى فيديوهات قمت بتسجيلها لها في هاتفي. يا الله ما أجملها من أيام!

وكم يصعب علي الآن إخبارك بها، خاصة أنني متزوج الآن من امرأة أحبتني منذ الطفولة، ولم أكن ألاحظ هذا، تخيل؟" ... ثم سكت.

ومضت ماريا. يبدو أن حديثه عن صديقته القديمة لم يعجبها.

شرب القليل من الماء وأشعل سيجارة وتابع كلامه.

***

101: "انتهت مع ذلك اليوم رحلاتي اليومية من وإلى العاصمة. أستأجرت بيتًا صغيرًا مؤلفًا من غرفة نوم ومطبخ وحمام، وفي الطابق الأرضي كان هناك حديقة صغيرة تحيط المبنى كله. قريبة من باب شقتي. مما جعلها أقرب لقلبي بلون الأرض البنية والشجيرات الصغيرة على جانبي المدخل، في العاصمة قرب المدينة الجامعية.

ثم وجدت لنفسي عملًا في مجلة فنية إعلانية. أصمم فيها الإعلانات للشركات.

وأحيانا كنت أرافق بعض الصحفيين لأصور مقابلة مع فنان ما أو كاتبة ما. كانت تعد على الأصابع الشخصيات التي كنا نقابلها، وتقريباً كانوا يعيدون كلام بعضهم البعض في المقابلات، ولا تحصل على جملة جديدة. ما رأيك يا حسن أن نكمل الحديث عن ما بعد تلك الفترة في يوم آخر؟، أريد التحدث مع ماريا قليلاً" .. وأطفأ سيجارته.

"بالتأكيد يمكننا ذلك. اذهب لزوجتك".

"سيكون من الصعب والمتعب ترك الأمر ليوم آخر، وكذلك تذكر كل ما حدث، وحتى يتسنى لك تدوين الأحداث بدون صعوبة. في كل مرة نتحدث يمكننا كتابة ملخص تزيل منه زيادات الحديث، وتبقي على القصة بطريقتك؟".

"بالطبع سيكون ذلك صعباً لكلينا، أوافقك الرأي".

"إلى اللقاء".

***

ذهبت ليلاً للقاء أصدقائي بعد انتهاء المحادثة مع 101 وزوجته اللطيفة ماريا. بعد أن حصلت منها شخصياً على الإذن بكتابة ما يحكيه لي 101، وطلبت مني أن أرسل لها بين الحين والآخر ما أقوم

بكتابته، إما لتصحيحه أو لمسح ما تريد من كلام لا تريد لأحد غيري معرفته. أتمنى أن ينتهي زعلها قريباً.

هل كان على 101 تجنب الحديث عنها لي؟ على الأقل أمام ماريا؟ ولكن ما العيب في الحديث عن شيء سابق، عن علاقة سابقة!!

أفهم ردة فعلها هذه ... هي كذلك غالبية نساء بلادنا، يغرن على رجالهن حتى من ذكر علاقة سابقة.

ثم قضيت العطلة التي تلت محادثتنا في الاستماع لما قاله 101 وكتابته بشكل نصي بعد إزالة الحشو منه وتنظيفه من الإعادات والتوضيحات التي كانا يقومان بها فور سؤالي عن أمر ما. لقد كانا ماهرين في سرد القصة، ويبقى علي تقديمها بالطريقة التي تليق بشطارتهما.

وفي مساء يوم الأحد وصلني رسالة من 101 على ماسنجر يسألني عما إذا كان يناسبني أن نكمل حديثنا مساء يوم الجمعة 08-04-2016.

فقمت بدوري بإجابته أنني أستطيع ذلك، بل وأني متحمس كل الحماس للقاء ثاني على الكاميرا، وجهًا لوجه، ثم أجابني أنه سيكون وحيدًا هذه المرة لأن ماريا ستكون مع أخته في سهرة عيد ميلاد إحدى الصديقات الفرنسيات التي تعرفت بهن في حييهم.

***

محادثة سكايب الثانية .. الجمعة ٠٨-٠٤-٢٠١٦

في الموعد المتفق عليه مسبقًا، بدأ 101 بإكمال قصته بعد الاطمئنان على بعضنا البعض، وأخبرني القليل عن متاعب الحياة الزوجية.

ثم حدثني عن غيرة ماريا المفرطة، وبعض الأمور التي طلب مني عدم التطرق لها أثناء كتابتي، لتعلقها بأناس مازالوا مقيمين في بلده، ثم عدنا لتذكر آخر ما تحدثنا به آخر مرة، ليكمل إخباري من نقطة التوقف.

101: ".. وما هي إلا سنة بعد تخرجنا من الجامعة. منتصف سنة 2010 حتى بدأت الاضطرابات الأمنية وأحداث الشغب، كما سمتها الحكومة، ومع تصاعد وتيرة الاضطرابات، طلبت الحكومة من كل مؤسسات الإعلام الخاصة والعامة تسمية ما يحدث بهذه الأسماء. ولجأت الحكومة إلى استعمال السلاح المطاطي أحيانًا، والحي أحيانًا أخرى، لوقف هذه الاضطرابات.

ما لبث أن تحوّل الأمر إلى مظاهرات عمت قسمًا كبيرًا من أرجاء البلاد، ترفع شعارات تكاد تكون واحدة. مثل: الشعب يريد إصلاح النظام، كرامة وحرية وعدالة، الخبز والديمقراطية للجميع.. وغيرها.

كانت وجهة نظر الحكومة واضحة منذ الأسبوع الأول: هناك رجال ونساء باعوا ضمائرهم للغرب المعادي لدولتنا، وأنهم يقبضون الأموال من دول مجاورة وأجهزة مخابرات عالمية لزعزعة أمن الدولة، وأن الحكومة وقواتها كانت تقاتلهم لإعادة الأمن للبلاد.

كنت على اتصال دائم مع عائلتي في بلدتنا، ومنهم كنت أستقي المعلومات عن ما يجري عندهم من أحداث.

كان التلفزيون الحكومي ينقل صورًا مباشرة لمسيرات عمت مناطق واسعة من البلاد، وفي المقابل قنوات أجنبية تبث صورًا لما سمتها بداية الثورة في بلدي".

ثم سكت 101 بدون أي مقدمات ... لم أعرف السبب، لكنني تركت له الوقت الكافي ليهدأ. إذ بدا عليه التعب، وأشغل سيجارة هو، وأنا قمت بذلك أيضًا.

ثم قال: "اتصلت صباح يوم الخميس25-11-2010 بوالدتي لأطمئن على صحة العائلة ولأسمع منها كيف تجري الأمور عندهم.

أخبرتني أمي أن لا شيء غريبًا يحدث، وطلبت مني تأجيل زيارة يوم غد الجمعة كما هو مخطط، ولم تقل لي الأسباب. فقط أني سأتلقى اتصالًا هاتفيًا من صديق والدي في العاصمة، ليوصل لي بعض الأطعمة التي حضرتها أمي لي. هذا كل شيء.

وفي المقابل كان معظم رفاقي من الذين بقيت على اتصال معهم في البلدة، يخبرونني أن الأمور تتجه للأفضل. دون أي شرح من جانبهم، خوفًا من تسجيل مكالماتهم، وبالتالي تجنب حدوث نتائج كلنا نعرفها جيدًا.

قامت الحكومة بنشر حواجز عسكرية في مناطق سكنية في العاصمة، لتسهل عملية التدقيق في الأسماء، حيث بدأ عمل المخبرين وعملاء الحكومة في متابعة الشخصيات التي بدأت في الانضمام لمجموعة مختلفة تدَّعي معارضة النظام وتطالب بإسقاطه.

لقد مضى على هذه الحالة شهر. لم تتوقف المسيرات ولا المظاهرات ولا حالات الاعتقال العشوائي التي عمت البلاد.

كانت ترتفع وتيرة الأحداث بشكل ملحوظ في أنحاء البلاد.

الحكومة على رأيها في ما يحدث، وكان قد ورد في تلفزيون البلاد "أن مجموعة من العساكر الأوفياء للوطن لقوا حتفهم أثناء أداءهم لواجبهم المقدس في الدفاع عن البلاد ضد مجموعة من العملاء والخارجين على القانون ممن يريدون القضاء على وحدة البلاد والعيش المشترك".

ومن جهة أخرى تظهر لقطات على محطات تبث من خارج البلاد، مجموعات كبيرة من الناس تمشي في مدن بلدنا تحمل لافتات غير اللافتات القديمة. حيث بدأوا بالمطالبة بإسقاط النظام الحاكم لهمجيته وديكتاتوريته واستبداده. وفي بعض المحطات كانت هناك صور لمن سموهم شهداء الحرية، كانوا قد لقوا حتفهم نتيجة إطلاق رصاص حي من جهة النظام أثناء مظاهراتهم السلمية لوقفها.

بقيت الأمور على هذه الحال طوال شهرين. لا أحد يعرف إلى أين ستتجه الأمور. كل يوم نسمع في نشرات الأخبار عن استشهاد عناصر عسكرية في عملياتهم لتطهير البلاد من المرتزقة، كما بدأت الحكومة وإعلامها بتسميتهم.

كنت أجد أحيانًا صعوبة في الاتصال على والدتي وأختي في البلدة، وكان والدي قليل التواجد في البلاد، كثير السفر، وعندما أفلح في الاتصال بهم، كانت تخبرني أمي أن الحكومة تعمل على إصلاح الإنترنت والاتصالات، وأن الأمور تتجه نحو الأفضل. لم أفهم كيف كانت تتجه نحو الأفضل، وكل أسبوع، على الأقل، هناك انفجار أو تفجير في مكان ما من البلاد، وليس للناس حديث في الشوارع والساحات، سوى أخبار عما يحدث في أطراف العاصمة، ووسط البلاد.

كنت أرى وأنا في طريقي إلى المجلة التي كنت أعمل فيها، وجوه الناس وكمية الترقب لشيء ما في عيونهم. هناك أخبار عن أن بعض الشركات نقلت أعمالها إلى خارج البلاد، وعن عقوبات فرضتها الدول القوية على الحكومة هنا، في الأحرى على شخصيات اتهموها بأنها على علاقة بقمع الاحتجاجات في بلدنا.

كيف لنا نحن سكان العاصمة، الذين نعيش ضغوطًا أمنية، جراء نشر الحواجز، كيف لنا أن نعرف الحقيقة؟!

انتشرت صفحات عبر الإنترنت تنشر صورًا لضحايا تقول أنهم قضوا تحت التعذيب في سجون الحكومة وكانت واضحة عليهم آثار ذلك".

وسكت 101 فجأة .. ثم عمد إلى إشعال سيجارة.

***

كنت ألمح في عيون 101 بريقًا ما كلما تقدم في سرد القصة، وعندما كان يسكت هو ليشرب الماء، كنت أنتظره ولا أتحدث. حتى لا يعيق ذلك عملية التسجيل ولكي أترك له المجال للتذكر وأساله لتوضيح أمر ما، كما اتفقنا سابقًا.

ثم قال: "أظن أن هذا يكفي لهذا اليوم .. ما رأيك؟ أصبح لديك الكثير لتكتبه، أليس كذلك؟".

"صحيح، ولا مشكلة في ذلك طبعًا، أنا من طلب منك التحدث وعلي تحمل مسؤولية الاستماع لكل كلمة تقولها لي. أظن أن لديك الحق، لنتوقف الآن. أخبرني هل أنت سعيد في فرنسا؟".

"حقيقة لا أعرف، أعيش حياة هادئة نوعًا ما مع زوجتي، لدي أهلي معي، أقوم بزيارتهم أنا وماريا بين الفينة والأخرى. الوضع جيد

لغاية الآن، وكيف هي أوسلو؟ رأيت أحد منشوراتك. كتبت *أوسلو الجميلة * هل هي فعلًا كذلك؟".

"يمكنني القول بأنها جميلة بل وحنونة، أعيش حريتي الجميلة هنا، دون أي خوف من أي شيء. الله هو الحامي .. لكني لم أتعرض لأي مضايقة حتى الآن، ولدي أصدقاء وصديقات. كل شيء على ما يرام يا صديقي".

"من الجيد سماع ذلك، يبدو أنه علي القول أنني مجبر على إنهاء المحادثة الآن، سنكمل كعادتنا الحديث كل فترة .. ما رأيك؟".

"يناسبني جدًا، لا عليك، امضِ لشؤونك عزيزي، وانتبه لنفسك".

"وأنت أيضًا، أراك بخير".

"الله معك".

***

يوم الجمعة ٢٢-٠٤-٢٠١٦

استفقت صباح الجمعة لأجد رسالة من 101 على سكايب مكتوب فيها:

" العزيز حسن ..

لقد سعدت ماريا بالتحدث إليك عبر كاميرا سكايب. هكذا أمرتني أن أقول لك. لقد أصبح العالم صغيرًا بالفعل. في الحقيقة توجب علي قول هذا لك من المرة الماضية.

أودّ إعلامك عن خطتنا أنا وماريا لزيارة أوسلو في الصيف القادم. بعد شهرين من الآن. لقد أخبرتها ما أخبرتني بِهِ أوسلو. وأبدت إعجابًا كبيرًا، لم أراه على وجهها عند إخباري لها عن بقية المدن التي أزورها. يبدو أنها أرادت التعرف على المدينة، طبعًا، التعرف عليك أيضًا، ويمكنني القول أنني أشم رائحة حشرية من نوع نسائي.

لقد بدأ والدي ووالدتي مشروعهم الخاص قبل يومين، وهو عبارة عن محل للأحذية الجلدية والحقائب وكفوف اليد وأحزمة البناطيل

الجلدية منها. تبدو والدتي فرحة بهذه المشاركة أكثر من والدي، فهي لم تعتد على عمل كهذا، كما أخبرتك كانت مدرسة ثم مديرة، ولكنها سعيدة بالعمل مع الزوج الذي لطالما كان غائبًا عنا، وعنها بالطبع.

أختي تجري إجراءات لم الشمل لحبيبها المنتظر وائل، ذلك الشقي. لقد حصل على وظيفة في مؤسسة حكومية تعمل على توزيع السماد والبذار إلى القرى النائية في البلاد، ويبدو أنه سعيد. قال لي أنه يقوم بتشجير البلاد قبل تركها. لا أظن سأدخل نفسي بهذا. فهم أعلم منا بالطبع.

بكل الأحوال بالعودة إلى زيارة أوسلو. سأحيطك بكل تأكيد بتفاصيل الرحلة كاملة فور الانتهاء منها. لِمَ لا نتحدث بعد أسبوعين في سكايب؟ 06-05-2016 هل يناسبك؟ سأكون وحدي في البيت. تسافر ماريا وأختي إلى مدينة نيس. سأخبرك عنها في حديثنا المقبل. ادعُ لي أن تجري الأمور على خير، لا تنسَ يوم الأرض".

صديقك المحب

باريس .. 22-04-2016

***

الجمعة ٠٦-٠٥-٢٠١٦

"تغير كل شيء في هذا اليوم".

هكذا بدأ 101 حديثه مساء هذا اليوم الذي اتفقنا عليه.

كنت قد أرسلت له رسالة قصيرة ليست كسابقاتها، شرحت له فيها عن سعادتي لسماع خبر تخطيطهما لزيارة أوسلو، وأخبرته عن مدى سعادتي لأننا سنقضي أجمل الأوقات هنا، فالصيف في النرويج رائع جدًا، ويستحق المرء قضاء إجازته في غاباته وجباله. أعرف بعض الأماكن التي ستعجبهم جدًا. وتحدثت له عن الكتابة التي أقوم بها بين الحين والآخر، وأنني لم أقم بكتابة شيء لم يرده هو. أعجبه هذا وشكرني على تفهمي. يا له من مهذب!

ثم تحدثنا عن أمورنا اليومية التي تتكرر، ثم أوصلت له بعض الكلمات عن الفيلم الذي نعمل على إنجازه أنا وداليا وجوناثان الذي سيكون منتجًا للعمل عن طريق شركته.

***

ثم تابع 101: "..صباح ذلك اليوم، أوقفت تاكسي لتوصلني إلى المجلة التي كنت أعمل بها، وليتني ما فعلت.

صعدت بجانب السائق وقلت له: "صباح الخير، منطقة المكاتب لو سمحت". فقال السائق: "صباح النور، تكرم عينك، يا رب".

انطلقت بنا السيارة نحو منطقة المكاتب. سموها بذلك الاسم نظراً لكثرة المكاتب ودور النشر والمكتبات فيها.

منطقة بغاية الجمال. البنايات كلها من خمسة طوابق، كل طابق يحوي أربعة مكاتب كبيرة وضخمة تصلح لكل شيء. مدهونة من الخارج بطلاء أزرق وأبيض، أو بني وأبيض، وواجهات زجاجية.

كانت عبارة عن عشرة أبنية وكان الطابق الأرضي من كل بناء يحوي على خمسة محلات: منها مطاعم، ومنها كافتيريا، ومنها مطاعم بيتزا، ومنها مكتبة تقوم ببيع معدات قرطاسية، ومنها مكاتب لبيع الكتب، وكان هناك ثلاث دور نشر في ثلاث بنايات .. أقصد في القبو.

***

خلال الطريق كان السائق يستمع إلى مطربة عربية مشهورة في منطقتنا. كان السائق في قرابة الخمسين من عمره، كما أعتقد.

سألته : "كيف هي الحياة يا عم؟".

"الحمد الله يا ابني".

"هل هناك ما يكفي من العمل؟".

"والله الحياة مختلفة كل يوم ... يوم فوق ويوم تحت. نعمل ما علينا وعلى الله الباقي".

"هل لديك أولاد؟". سكت ولم يجِب على سؤالي.

"هل أزعجك السؤال؟ أعتذر".

"لدي ثلاثة أولاد، في مثل عمرك أو أكبر أو أصغر. استشهد أكبرهم قبل أيام".

بدا الحزن الشديد على وجهه فقلت له: "آسف لسماع ذلك. البقية بحياتك". ماذا سأقول له يا حسن؟!

ثم أكمل: "لقد كانت هناك مظاهرة يوم الجمعة الفائت، في السوق العامة. خرجت من الجامع القريب إلى الساحة يهتفون ضد الحكومة" .. ثم سكت وغارت عيناه بالدموع.

مسكت يده من الكتف وقلت: "اهدأ يا عم، لم أقصد ذلك، يمكنك التوقف عن التكلم".

نظر نحوي بدموعه وقال لي: "لا عليك، لكنني أشتاقه، لقد ربيته خمس وعشرون عام، تخيل؟ مضى هكذا؟... وبعد ذلك حصلت مواجهة مع القوات الحكومية التي حضرت إلى المكان لوقف المظاهرة وتفريقها".

"وما الذي حدث بعد ذلك؟".

"أخبرني أصدقاؤه الذين أحضروه إلى البيت بقيام بعض العساكر بإطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين. فقتلوا خمسة منهم. قبل أن يهرب البقية في شوارع المنطقة، وتتوقف المظاهرة بعد سحب جثث الذين سقطوا، يا لهم من سفلة!".

"اهدأ يا عم، رحمة الله عليه، البقية بحياتكم".

"لن تفتح الحكومة تحقيقًا لمعرفة من قام بذلك، لأنهم يعتبرون هؤلاء المتظاهرين خارجين على القانون. يجب إسقاط هذا النظام بأي وسيلة .. ها قد وصلنا يا بني، ٧٥".

"شكرًا جزيلًا لك، وآسف لسماع ما حدث لابنك".

نزلتُ من السيارة مذهولًا. أيعقل هذا؟ هل هذا حقيقي؟ لماذا لا نعرف نحن سكان البلدة بمثل هذه القصص ... يا إلهي! كم هو شعور مؤلم سماع كلام هذا العم!

صعدت إلى المكتب. جلست على الكرسي. لم أستطع فعل شيء. بقيت مشغول الفكر بما سمعت من العم، وشكل وجهه وهو يخبرني ذلك، وعن أي إسقاط نظام يتحدث؟ ستعم الفوضى إذا ما حدث شيء كهذا ... أو هكذا كنت أظن وقتها، لقلة معلوماتي أولًا، ولعدم قدرتي على فهم ما يحدث.

ثم طرق زميلي باب غرفتي ووقف في الباب ليقول: "هناك شاب قام بحرق نفسه احتجاجًا على سوء المعيشة". ثم أغلق الباب خلفه دون أن يضيف أي شيء آخر.

خرجت إلى البلكون لأشرب سيجارة. ما الذي يحدث؟! ثم عدت إلى المكتب، حملت حقيبتي وجاكيتي وخرجت.

كانت أوقات شتاء ومرات المطر قليلة. ها هي تمطر. دخلت إلى أحد المقاهي في المنطقة. طلبت لنفسي فنجان قهوة، وجلست أمام النافذة أشربها وأنا أشاهد المطر، ثم اتصلت بوالدتي:

"كيف حالكم؟".

"بخير الحمد الله، وأنت يا بني الحبيب؟".

"الحمد الله بخير. لكنني مشوش بعض الشيء".

"أخبرني، هل هي فتاة جديدة تشغل بالك؟".

"لا، الأمر مختلف تمامًا. هل عاد أبي؟".

"لن يعود قبل منتصف الشهر الرابع، أخبرني ما الأمر؟".

"الوضع كما تعلمين. الأمور مخربطة".

"لا تشغل بالك بذلك بني، ستتجه الأمور نحو الأفضل عما قريب، أختك تريد التحدث معك".

"أهلين يا حلوة، كيف حالك؟".

"مشتاقة لك، ألن تأتي؟ لدي الكثير لأخبرك به".

"بلى، يا عصفورتي الجميلة، سآتي عما قريب، هل من عريس؟".

"يا لك من .. لا لا، لقد أخبرتني ماريا أنها معجبة بك على فيسبوك. وأنها تريد أن أحدثك .. تعال".

"هههههه هل حقًا قالت هذا؟! .. أليست تلك التي لا تتوقف عن الضحك؟".

"بلى هي .. التي كنت تشدها من شعرها قبل عشرة أعوام".

"صحيح هذا الكلام، سأدخل اليوم لأراها".

ثم أخذت والدتي الهاتف منها: "لا تنصت لها يا بني، أمامك الوقت الكافي لتعمل ثم تأتي متى أردت، لن نذهب عن هنا، ستجدنا متى ما جئت".

"أحبك يا أمي".

"أحبك يا حبيب قلب أمك، مع السلامة".

ثم خرجت متجهًا إلى البيت تحت زخات المطر.

***

"هل يكفي هذا لحد الآن؟ سيكون هناك الكثير من الأحداث من الآن وصاعدًا. لقد تعبت".

"لا تقلق يا صديقي. يمكنك التوقف متى تشاء. لا أمانع ذلك".

"أشكر تفهمك يا حسن، وشكرًا مرة أخرى على استماعك الجيد. لقد بدأت أشعر باعتياد محادثتنا، وبدأت بترتيب بعض الأيام في الشهور المقبلة لحديثنا. سأرسل لك رسالة نصية فيها المواعيد. آمل أن تناسبك، فهي أفضل الأيام بالنسبة لي".

"بالطبع يا عزيزي، سيكون من الجميل جدًا حصولي عليها .. سأقوم بترتيب الأمور. يبدو أننا نميل إلى تنظيم حياتنا الآن".

"مرغمون على ذلك، حسب اعتقادي".

"لن أدلي بأي تصريح الآن".

"انتبه لنفسك جيدًا يا ابن أوسلو".

"وكذلك أنت أيها الفرنسي".

ضحكا كلانا وتمنينا لبعضنا ليلة جميلة.

"يتعبني التذكر الشديد هذا لأدق التفاصيل يا حسن".

"لا تقلق، لسنا على عجلة من أمرنا. ما رأيك أن نقف عند وصولك إلى البيت؟ ونكمل يوم 27-05-2016 .. قلت لي أنه يناسبك؟".

"بالتأكيد يمكننا فعل هذا صديقي. أراك مساء ذلك اليوم. كن بخير لحينها".

"شكرًا عزيزي، وأنت أيضًا".

"إلى اللقاء".

"إلى اللقاء".

***

الجمعة ٢٧-٠٥-٢٠١٦

أمضيت الأسابيع الأخيرة مثل باقي الأسابيع، من ذهاب إلى مدرسة اللغة، وتعلم اللغة النرويجية. كان هناك احتفال بعيد العمال في أول يوم من هذا الشهر، وعيد الاستقلال النرويجي في السابع عشر من هذا الشهر.

قمت بالاستماع لما أخبرني به 101 خلال الفترات الماضية، وأعدت صياغة بعض الجمل بما يتيح فهمها بشكل أفضل. كان يستخدم بعض مصطلحات بلده ويشرح قصده منها بعد ذلك.

كان يأخذ وقتًا لإعادة الشرح، لكنني لم أشكُ من هذا. على العكس بدأت بتعلم مصطلحات بلد جديد، ومعرفة بعض الصفات من أماكنه .. أوليس هذا جيدًا؟ .. بالنسبة لي، جيد بما فيه الكفاية.

كعادتنا في كل يوم محادثة، نبدأ بالتحدث عن الأيام التي فصلت بين المحادثتين، وبعدها يبدأ بتكملة القصة.

أخبرني اليوم عن أعمال والده التي بدأت بالازدهار نتيجة تعرفه ببعض الشخصيات الناجحة هناك، يقصد في أوروبا ثم وضح لي طبيعة العلاقات التي بدأ ببنائها في فرنسا.

تحدثت له عن تطور مشروع الفيلم عن السجون السورية، وأبدا فرحًا لهذا الخبر. كان يبدو عليه الهدوء والراحة أكثر فأكثر في كل مرة نتحدث، وهذا شيء يعجبني. لا أريد لهذه المحادثات أن تسبب أذى لأي منا .. ثم عاد ليكمل لي القصة.

***

101: "وصلت إلى المنزل مبللًا. نزعت ملابسي عني وأخذت حمامًا. بقيت تحت الماء الساخن طويلًا. أفكر وأفكر وأفكر. ما الذي يحدث حولي ثم أعددت وجبة خفيفة. شربت سيجارة وجلست أمام الكمبيوتر، تصفحت فيسبوك. كان هناك الكثير من المنشورات عن مظاهرات تعم المناطق المحيطة لبلدتي. كانت ماريا قد أرسلت لي طلب صداقة في فيسبوك. قبلت الطلب ودخلت إلى صفحتها.

رأيت منشورات تحوي صور دمار لمناطق من بلدتي. كانت هناك منشورات تظهر جنازات لشبان من بلدتنا، وصوت فتاة تعلق على

الأحداث وتقول أن الحكومة وقواتها تقتل المتظاهرين، ثم بعثت لها برسالة قصيرة محتواها: "هل ما يحدث في الفيديوهات والصور يحدث في بلدتنا؟ أجيبي فقط بنعم أو لا ... رجاءً". وأغلقت الكمبيوتر، واستلقيت في أريكتي أمام التلفاز، محدقًا في السقف.

يبدو أنني غرقت في قيلولة طويلة. استيقظت في المساء. ذهبت الى المرحاض، ثم أعددت لنفسي فنجان شاي. عدتُ إلى الأريكة. فتحت شاشة الكمبيوتر فوجدت رسالة من ماريا جاء فيها كلمة واحدة: "نعم!". فقط هذه الحروف الثلاثة". ثم سكت 101.

هنا بدأ لون وجه 101 بالتحول نحو الأصفر وبدا واضحًا عليه التعب. أشعل سيجارة وتابع.

فقلت له: "هل تريد التوقف هنا؟".

101: "لا، لازلنا في البداية".

"حسنًا".

101: ".. رحت أسترجع كلام والدتي أن كل شيء سيُصبح أفضل والأمور تتحسن وكل هذا الكلام من جهتها، وكلام العم السائق عن استشهاد ابنه، والمنشورات بصفحة ماريا؟! أيعقل هذا؟

وبقيت جالسًا طوال الليل على أريكتي أقلب صفحات فيسبوك التي كانت مثيرة وكلها تتحدث عن الحراك الثوري في مناطق قريبة من العاصمة وعن تسجيل لجان ومجالس ثورية محلية في مناطق من البلاد، التي تم طرد الحكومة منها، وعن تشكيل بعض اللجان الشبابية مهمتها حماية المدن والبلدات التي تخرج عن سلطة النظام.

في صباح اليوم التالي، صدر قرار حظر تجوال في العاصمة لمدة أسبوعين، وصدر قرار بإعادة العمل بقانون الطوارئ الذي كان سائدًا في البلاد منذ ثمانينيات القرن المنصرم، وبدأت جملة جديدة من القوانين الجديدة تطبق في المحاكم، خاصة بالأناس الذين يلقى القبض عليهم في أعمال تخريبية كما سمتها الحكومة ضد قرارتها وقوانينها الجديدة. بقيت في منزلي أسبوعين، لم أستطع الخروج.

كنت معلقًا بشاشة التلفاز ومحطات الأخبار طيلة الوقت، واتصالاتي مع والدتي وأختي مستمرة، وأصدقائي الذين لا يملون من إخباري أن أمورهم بخير. بينما كنت أشاهد العكس في فيسبوك وغيره. حظر التجوال زاد من صعوبة الأمر علي. لم يكن بمقدوري الذهاب سوى إلى الدكان القريب من بيتي في حينا، والعودة إلى البيت.

مضى أسبوعان على غيابي عن العمل، اتصل المدير مرتين وفي المرتين قلت له أنني مريض. في المرة الثالثة قال لي أنهم قد وجدوا بديلًا لي. وأن أمر بهم لأخذ أغراضي ومرتبي الأخير، وشكرني على خدماتي معهم. هذا كل شيء. أصبحت فوق كل هذا عاطلًا عن العمل في بلد يسوده جو من اللامفهومية واللاوعي، وكل شيء لا يبشر الخير، إلا في نظر أمي وأهل بلدتي .. كان كل شيء بخير.

حسن، لقد وصلنا إلى مكان يصعب علي تذكر كل تفاصيله، لكنني سأكمل لك القصة كتابة يوم 17-06-2016. لن أستطيع إخبارك إياها هكذا. يصعب علي هذا. سأكتبها ولك حرية مسح ما تراه غير مناسب، كالعادة ... اتفقنا؟".

كنت بدأت أرى في عيني 101 نظرات ندم من نوع ما، كان يبدو عليه ذلك من توقفه وتلعثمه في ما يقول، كأنه يريد قول شيء ما، لكنه لا يقدر. فلم أرد أن أتطرق لهذا، بل على العكس، تحويل الأمر لشيء آخر.

"بكل سرور يا صديقي. سأحب قراءتها وتقليمها".

"أحتاج بعض الوقت لنفسي مع ماريا .. سنسافر بعض الأيام. سأخبرك بكل تفصيل جديد. كن بخير لوقتها". ثم ابتسم وقال: "سيكون لديك وقت راحة مني، استمتع بوقتك. إلى اللقاء".

"إلى اللقاء".

***

يوم الجمعة ١٧-٠٦-٢٠١٦

كتبت ما أخبرني به 101 في صفحات اليوميات، وقمت بتحديد بعض العناوين لمحادثتنا، وذلك بإضافة التواريخ لكل لقاء، حتى يسهل علينا متابعة سرد القصة.

مساء اليوم، وصلني رسالة من 101 كما وعدني. فقمت بإضافتها إلى اليوميات كما وردتني، وهكذا سأفعل كما فعلت مع رسائله من قبل. سأقوم بصياغتها فقط بلغة صحيحة، معظم كلماته باللغة العامية. لن يزعجني أبدًا ذلك .. على العكس، سيسهل علي الأمر.

***

101: "استفقنا صباحًا على صوت انفجار سيارة مفخخة في وسط العاصمة. لم يكن موقع الانفجار بعيدًا عن المنطقة التي أعيش فيها. خرجت بملابس النوم إلى الشارع أمام المنزل، فرأيت عامود دخان أسود يرتفع نحو السماء من طرف العاصمة. عدت إلى الشقة مسرعًا، وأشعلت التلفاز لعلي أعرف ما حدث. كان الطقس باردًا ماطرًا.

قنوات التلفاز كانت تتحدث عن عملية انتحارية بالقرب من مبنى حكومي. لم يقل أحد ماهية هذا المبنى. سوى أن هناك بعض الجرحى المدنيين. وأن الجميع يأسف لما يحدث من اضطرابات وراجين من الله أن تنتهي بأسرع وقت، وأن يعم السلام مجددًا والأمن والأمان. هذا كل شيء. بعد دقائق ورد خبر عاجل يقول إن دولًا عدة أدانت هذا التفجير ووصفته بالإرهابي أيضًا.

وبينما كنت أقلب في قنوات التلفاز، رن هاتفي الخلوي. كانت أمي المتصلة لتطمئن عما إذا ما كنت قريبًا من الحدث وإن كنت بخير. فقلت لها أنني بخير وأنني في شقتي ولم أكن في الخارج، ثم حدثتني عن ضرورة الانتباه لنفسي. هي الأم كذلك دومًا، تخاف على أبنائها وتأمرهم برعاية أنفسهم.

أخبرتني أمي أيضًا أن الأمور بخير عندهم .... لا شيء يحدث، فقط هدوء تام، ثم أغلقت الهاتف وهي تقول لي أن الساعة العاشرة صباح اليوم سيحضر لي رفيق والدي مبلغًا من المال لأشتري لنفسي ملابس جديدة .. الليلة عيد رأس السنة، وأن أقوم بشراء أطعمة جاهزة حتى

يسهل علي البقاء في البيت إذا ما اشتدت وتيرة الأحداث في نواحي العاصمة، وكأنها كانت تعلم أن الأمور ستزداد سوءًا.

ثم جاء خبر عاجل في التلفاز، بينما كنت أجلس على الأريكة أمام التلفاز، يتحدث عن انتهاء معركة في شمال العاصمة مع مجموعة كانت قد تشكلت للتحريض على العصيان المدني، وكانوا يتلقون النقود من الخارج. بينما هذه المجموعة في حقيقتها، حسب التلفاز أُسست لسرقة ممتلكات الناس ودب الرعب في أنفسهم، وأن الحكومة تكتمت على أمر المعركة لتضليل الأعداء.

ومن ثم في قنوات أخرى، أظهروا بعض صور لناس قالوا إنها صور لمعتقلين لدى الحكومة تم تعذيبهم وقتلهم أثناء الحركات الاحتجاجية. لمحت من بين الصور أبنية أعرفها، أو بدا لي هذا .. لا أعرف.

خرجت أستنشق الهواء في الحديقة بعد سماعي هذه الأخبار التي لا تسر. أيعقل هذا؟ هل هذه بلدتي؟ لا أصدق. حتمًا هذه ليست هي. الصور في التلفاز تختلف عما تخبرني أمي به منذ شهور.

***

كنت أسأل نفسي طوال الوقت: هل كانت تتعمد إخفاء الأمور؟ لكن هذا ليس من عاداتنا أبدًا ... أن نكذب على بعضنا. لا يمكنني البقاء هنا مكتوف الأيدي.

بينما كنت واقفًا أشعل سيجارتي في الحديقة اتصل بي رفيق والدي الذي سيعطيني هدية، وهي مبلغ من المال من الدتي، رغم أنني كنت أعمل ولدي راتب. التقيت به بعد ساعة فسلمني النقود. شكرته على مساعدتي ولطافته. توجهت بعدها مسرعًا نحو محطة الباصات. حزمت أمري، سأسافر وأتأكد من ذلك بعيني .... كان لابد من انتظاره حتى لا يشك أحد بأمري إذا ما سافرت قبل لقائه.

وصلت محطة الباصات وتوجهت إلى المكان المخصص لحافلات النقل الداخلية المتجهة نحو بلدتنا. سمعت بعض السائقين يتحدثون فيما بينهم عن فتح الطريق بعد إغلاقه لمدة شهر بسبب الظروف، ولم أفهم أي ظروف هذه التي أدت إلى إغلاق الطريق مدة شهر كامل.

صعدت الحافة وجلست في الكرسي خلف السائق مباشرة لجهة اليسار من الباب، وانتظرت حتى يحين موعد انطلاق الحافلة. صعد راكبان بعدي، ثم حان موعد الانطلاق.

كنت على معرفة جيدة بالراكبين الآخرين. ذهبنا معًا إلى المدرسة الثانوية لمدة ثلاثة سنوات، ثم تفرقنا بعد ذلك وكل منا اختار طريقه. لم يكن هناك غيرنا نحن الثلاثة في الحافلة، والسائق طبعًا.

جلس أحدهما بالقرب مني والآخر جلس في الطرف المجاور على الكرسي الجانبي، ثم انطلقت بنا الحافلة نحو بلدتنا.

الذي كان يجلس بجانبي اسمه رائد، التفت نحوي بعد انطلاق الحافلة وقال: "منذ مدة لم نرَك يا صديقي؟ ... أين كنت كل هذه المدة؟ ... لا تقل لي أن العاصمة سرقتك؟".

أجبته وأنا أنظر إلى الساعة والنافذة وأخيرًا نحوه، قائلًا: "ليس الأمر كذلك. كما تعلم، تختلف الحياة بعد الثانوية .... أخبرني عنك، هل درست الهندسة المدنية؟".

نظر رائد إلى صديقنا الثالث الذي اسمه عادل محاولًا إدخاله بالمحادثة: "كنت أودّ ذلك، لكنني اتجهت إلى دراسة مجال النفط والتنقيب، الكثير من النقود هناك، أليس كذلك عادل؟ تخرجنا معًا العام المنصرم!".

عادل بدوره حاول إخباري عن صعوبة هذا الاختصاص: "لقد كانت سنوات صعبة، لكننا فعلناها. كما تعلم نحن ننتمي لبلدة تشتهر بعنادها وتصميمها. يا لها من حزينة اليوم". وسكت.

رائد: "ها نحن ثلاثتنا عائدين إلى أحضانها .. لقد اشتقت للبلدة وسكانها. مضت سنة ونصف على آخر زيارة لي. هل كنت هناك مؤخرًا؟" .. وجه السؤال لي.

نظرت نحوه وكلي خجل: "لا، للأسف، في الحقيقة كنت أودّ ذلك، لكن الظروف لم تسمح. وها قد سمحت الآن".

رائد: "من الجيد رؤيتك عائدًا!".

وبينما كانت تسير بنا الحافلة، بدأت تخفف سرعتها تدريجيًا، لمحت من النافذة أمامنا وعلى بعد أمتار خيمة منصوبة على طرف الطريق.

ثم قال لنا السائق بلهجة غاضبة: "حاجز تفتيش، يبدو أنهم اكتشفوا هذا الطريق أيضًا. تبًا لهم ولحروبهم التي لا تنتهي، جهزوا أنفسكم وأخرجوا الهويات ووثائقكم". وسكت وهو يضرب بيده على المقود.

سمعت صوت الضربة، وشعرت باحتقان وكره في كلامه.

توقفت الحافلة عند نقطة تواجد الخيمة، وعلى جهة اليمين من الطريق. بدا على صديقَي عادل وماجد الارتباك.

وقف عسكري أمام باب الحافلة وطلب منا أن نعطيه هوياتنا ووثائق ثبوتية شخصية، وطلب من السائق إغلاق الباب خلفه بعد ذهابه لتفقدها. لم أكن أفهم أي شيء مما يحدث هنا الآن. بقيت جالسًا محافظًا على هدوء أعصابي. كنت خائفًا من حدوث شيء لا أعرفه. أشعر بقرب وقوعه فقط.

غاب عنا العسكري بضع دقائق، سادها الصمت، الحيرة والخوف. لا يجرؤ أحد على النطق بكلمة، ثم رن هاتف رائد فجأة. فصرخ السائق من مكانه: "أغلقوا الهواتف فورًا، لا نريد أي مشاكل معهم، لا نعرف من هم حتى!".

ثم سكت وعاد ينظر من نافذته نحو الخيمة التي يجري فيها تفحص الأسماء. لحظات وعاد العسكري الذي أخذ الهويات برفقة اثنين من أصحابه. فتح لهم السائق الباب، فصرخ العسكري الذي يملك الهويات بيده: "من عادل؟ ومن رائد؟".

نظر صديقاي في بعضهما البعض، وقالوا في آن معًا: "أنا سيدي!".

فقال لهما بلهجة توقف قلب الإنسان من الخوف: "سترون الآن معنى التحريض على العصيان، انزلا يا حيوانات".

والتفت نحو رفاقه مشيرًا لهم أن ينزلوا صديقَي. رأيتهما بأم عيني، يُشحطان من الحافلة، ويرميان أرضًا أمامنا، ويدوس العساكر الثلاثة فوق جسديهما ... يا لها من همجية تلك الطريقة التي فعلوا ذلك بها!!

أعاد العسكري الهوية لي بعد أن نظر بي ودقق النظر بالهوية عند لفظ اسم صاحبها، كي يتسنى له التأكد من أن شكلي يطابق صورة الهوية، ثم أمر السائق بالانطلاق في جو يسوده الخوف والترقب.

مشت بنا الحافلة مجددًا، والسائق كان يتمتم بكلمات لم أفهم منها سوى الشتائم على الوضع الحالي، ودعاء الله أن ينتهي الأمر بسرعة.

لم أفهم أي شيء حتى الآن مما حدث. ولِمَ يحدث كل هذا اليوم؟!

كان الطريق على جوانبه وعرًا أحيانًا. لم يكن نفس الطريق الذي كانت تسلكه الحافلات أيام الجامعة. على طول الطريق آثار دخان يتصاعد خفيفًا من بين البيوت والبساتين التي تمر بقربها الحافلة.

سألت السائق: "هل رأيت الشابين من قبل؟ لماذا قال لي صديقي إنها أول زيارة لهما؟ وكيف أنزلوهما بتهمة التحريض؟".

فجاوبني وهو يشعل سيجارة: "لا تصدق كل ما تسمعه يا بني. يجب أن ترى بعينك" ... وسكت، وعاد لتدخينه.

فسألته عن سبب تغير الطريق، فقال: "لكثرة القذائف التي سقطت عليه لم يعد صالحاً للاستعمال، ومن ثم وجدنا هذا الطريق الزراعي الفرعي. لا بد لنا من العمل وتدبر لقمة العيش يا بني". سكت بدون أن يزيد أي كلمة.

رأيت من نافذتي مدخل البلدة. يبدو لي من هنا بعض أعمدة دخان، وخروج سيارة إسعاف من مدخل البلدة. وصلت الحافلة إلى موقف البلدة، وفتح السائق لي الباب لكي أنزل، وهو يقول: "كل عام وأنت بخير، الله يحميكم". فقلت له: "شكرًا، ولكم أيضًا".

***

بدأت أشعر بالتعب يا صديقي. لقد كتبت لك ما حدث عبر ثلاث جلسات كتابة، لهذا السبب ستجد الرسالة مقسمة إلى ثلاثة نصوص. سيكون عليك مهمة تنقيحها وتدقيق الأخطاء فيها بينما تقرأها. ثم لك حرية ترتيبها.

تذكير بمحادثة سكايب المرتقبة في 01-07-2016 ... الخبر الجميل، سنكون أنا وماريا في أوسلو منتصف شهر تموز. سنمضي يومين عند أقاربها، ثم لك حرية تحديد موعد لقائنا بك. سنبقى هناك ثلاثة أيام في فندق قريب من محطة الباصات في أوسلو. أتمنى لك دوام الصحة والعافية".

صديقك 101

فرنسا .. 16-06-2016

***

السبت ١٨-٠٦-٢٠١٦

"عزيزي 101..

فيما يتعلق بترتيب الرسائل، سيكون من المبكر الحديث عن سيرها وتنقيحها وترتيبها، هناك من سيقوم بمساعدتي في هذا. لا عيب في طلب المساعدة من أهل الخبرة في سرد مثل هذه الحكايات، حتى لا نفقد جماليتها.

أما بالنسبة للزيارة إلى أوسلو، هذا خبر انتظرته بفارغ الصبر منذ شهور وها هو يقترب ... سيكون من دواعي سروري لقاؤكم بل ويشرفني دعوتكم لقضاء فترة زيارتكم في بيتي. ليس بالبيت الكبير، هو عبارة عن غرفة نوم ومعيشة ومطبخ وحمام. ستتسع لنا ثلاثتنا، بل يمكنني المبيت عند جاري وصديقي مصطفى. لا تقلق لهذا.

سأترك بكل سرور القرار لك ولماريا، وسأكون متفهمًا لقراركم إذا لم تقبلوا دعوتي، فالمتزوجون لا يشعرون بالراحة لمشاركة غرف النوم مع أحد.

أسفت جدًا لسماع نبأ اعتقال رفاقك عادل وماجد. إنه أمر رهيب. أعرفه جيدًا. أتمنى أن نعود للحديث عنهم إن كان هناك أي جديد عنهم. أوصل سلامي لماريا وأهل بيتك. أتمنى أن تكونوا بخير".

حسن

أوسلو .. السبت 18-06-2016

***

الخميس ٣٠-٠٦-٢٠١٦

"عزيزي 101..

لم يصلني منك رد على رسالتي الأخيرة، وأتفهم انشغالك. ليس من المعتاد أن تصلك رسائل مني بوقت قصير، ولست معتاد الإجابة بسرعة. متفقون بهذا، لكني سأخبرك برسالة اليوم أجمل الأخبار التي حدثت حتى هذا الوقت من السنة. لن أستطيع الانتظار للقائك على سكايب غدًا، ولدي وقت للكتابة. سأكتب هذه الرسالة لك ثم سأقوم بحفظها لنفسي وأقرر لاحقًا إذا ما كانت سترد في الحكاية التي أقوم بكتابتها حاليًا.

اليوم تلقيت مكالمة هاتفية من فتاة سورية اسمها براءة. لقد تعرفت بها قبل قدومي إلى النرويج. كان هناك دورة ثقافية لتعريف اللاجئين الذين سيتم نقلهم من لبنان إلى النرويج بالمجتمع الذي سيقيمون فيه بعد شهور. تدور الدورة حول المجتمع النرويجي والعادات والتقاليد السائدة في النرويج. كان ذلك في ربيع سنة 2014. كنت أقيم مع

عائلتي في بيروت، لكن المفوضية لم تقبل ملف اللجوء الذي قدموه. وتم قبول ملفي وحيدًا. وفي أيام الدورة التي كانت مدتها خمسة أيام. التقيت ببراءة.

قمت بعزيمتها لشرب القهوة معي، وقبلت هي بدورها بكل خجل يمكن أن تتصوره، ثم تحدثنا قليلًا وتعارفنا، وبعدها في اليوم الثالث تبادلنا أرقام الهواتف. تحادثنا لمدة طويلة عن الحياة والغربة وغيرها، وكان ملحوظًا هذا الاهتمام من طرفينا، ثم انتقلت هي وأهلها للعيش في مدينة تبعد عن أوسلو ساعتين.

ذهبت مرة لأطلب يدها للزواج بعد ما وصلنا إلى هنا، حيث الأمان المطلوب والاستقرار الذي ينشده الجميع، لكن والديها كان لديهم رأي آخر، وطلبوا مني الانتظار حتى تستقر الأمور، ونتعلم اللغة ونستطيع فهم المجتمع الجديد. كان لهم الحق في هذا. وقتها لم أكن في غاية الجاهزية للزواج، وأنا أعترف لك بذلك الآن، وحمدًا لله أنهم رفضوا أول مرة.

اليوم كان لها زيارة إلى أوسلو مع المدرسة التي ترتادها في المدينة التي تعيش بها. وقد اتصلت بي وأخبرتني بهذه الزيارة. بعد انقطاع طويل

من التواصل. مازالت تحتفظ بحسابي على فيسبوك. يا له من وفاء! .. لقد انقطعنا قرابة سنة ونصف، تعرفت خلالها بفتيات عدة. لم أفلح في أي علاقة، والآن أعود لسماع صوت الحبيبة من أيام بيروت. أحببت هذا.

أخبرتني أنها كانت تضع اللايكات على منشوراتي من حساب ليس باسمها الشخصي. تحدثنا لساعة في أوسلو قبل أن يصلها اتصال من صديقتها لتخبرها أن الباص بانتظارها، فلقد تأخرت على موعد العودة. وعندما أخبرت صديقتها أنها معي، قالت لها أنها لديها الحق إذا كان سبب تأخرها هو هذا السبب، ثم عادت إلى رفيقتها، ورحلتها إلى مدينتهم، وعدت إلى بيتي فرحًا سعيدًا.

ستقول لي أني خرجت منذ فترة قصيرة من علاقة، وعلي الانتظار والتريث، لكنني أقول لك أنني لم أكن في علاقة حب. كنت أسميها لك صداقة، والآن أَجِد نفسي مرتاحًا لعودتها لي وعودتي لها، أو على الأقل عدنا لصداقتنا التي من الممكن كثيرًا أن تتطور لحب، ولا أستبعد عن نفسي التسرع إلى الزواج ... كعادتي متسرع.

كان هذا كل ما أريد إخبارك، وإن كان لديك شيء جديد تخبرني به بعيدًا عن قصتنا التي نعمل عليها فاعلم أنني سأكون مسرورًا لذلك. كما أعتقد أنك أنت مسرور الآن لسماع أخباري التي كان علي التريث بها، حسب رأيك، الذي أتوقعه من الآن. أيها الصحفي الفذ. كونوا بخير ..

حسن

أوسلو .. 30-06-2016

***

الجمعة ٠١-٠٧-٢٠١٦

كنت في الموعد المحدد لمحادثتنا، وكذلك كان صديقي **101**. بدأت محادثتنا بالحديث عن الأيام الفائتة. كان الحديث في معظم دقائقه الأولى يدور حول زيارتهم إلى أوسلو الجميلة، وعن عودة صديقتي إلى حياتي بعد انقطاع.

كما كنت أتوقع، كان رأيه أنه كان من الأفضل أن أتريث، لكنه أبدا تفهمًا كبيرًا لفرحي، بل شاركني به، وقال لي أن ما سيحدث سيكون من الجميل تجربته، ثم تحدثنا عن عوائلنا، لكنني أفضل عدم الخوض في ذكر من تحدثنا عنهم.

بدوري تفهمت رغبتهم المكوث في فندق، لكن كان علي دعوتهم. وطمأن قلبي عن عادل وماجد، وقال أنهما بخير، وأنهما خرجا من السجن بعد تغيير الحكومة في بلدهم. بعد أن قضوا سنتين كاملتين في السجن.

ثم عدنا لسرد الحكاية من حيث توقفت به الحافلة عند مدخل البلدة. قمت بدوري بإشعال مسجل الصوت، ليتسنى لي إعادة الاستماع لما قال بدقة، ونقله بصيغة كتابية على هذه الملاحظات.

***

101: "وقفت في موقف الحافلة مذهولًا مما رأيت. أهذه بلدتي التي تركت قبل شهور؟! ... لا أصدق. تابعت مسيري. بعض الأكوام الحديدية المتفحمة على جانب الطريق الأيسر، وبعض الأبنية المتطابقة فوق بعضها على الجانب الأيمن. أهذا هو الهدوء الذي كانت تخبرني عنه أمي؟!

كانت إشارة المرور المصلوبة تراقبني وأنا أُخالفها، وأسير وضوء المارة أحمر قاتم شديد المنع. أشعلت سيجارة وسط الطريق، سيجارتي هي الأخرى تراقبني وأنا أشرب منها على عجل لأهدأ .. كان المشهد مؤلمًا.

أسير وأنا أنقل ناظري بين فوارغ الذخيرة الحية. لم أكن أسير في حقل رمي تجريبي، أو في مشروع مناورة عسكرية. كأنني أدوس في ساحة معركة وضعت أوزارها قبل قليل.

هناك قطة هزيلة ... أتعبها الجوع ورائحة النفايات. تقف في طرف الطريق المقابل لي، وحيدة. كان محل البقالة المهدم شاهدًا على آخر من زاره. رحت أركض بين الأنقاض المنتشرة يمينًا وشمالًا. كنت كثيرًا ما أتوقف بين الركام أقلب بعضًا منه.

أذكر هذه الأماكن. هيئ لي نداءات أو استغاثة. لم يكن شيئًا سوى صدى صوت لعبة كهربائية لطفل تشبث بها قبل رحيله ليبقى زر التشغيل على وضعية التشغيل. شُغِلت مخيلتي بمظهر الطفل مودعًا لعبته وهو متشبث بقطعة من ملابس أمه، ويده الأخرى باللعبة أثناء هروبهم وخروجهم من هنا قبل أن يقع البيت. أو أنهم ماتوا هنا، ولم يخرجوا؟ بالتأكيد كان الأمر بكل الحالتين مأساويًا.

في أحد الأحياء التي مررت بها كانت كرة القدم التي تركها أصحابها. لعبة للأشباح - السكان الجدد للحي، وآخرين تركوا العجلات الهوائية في الشوارع. كل شيء في هذا الحي، تم سلب الهوية منه. الهوية التي تركتها قبل شهور فقط.

صوت رشقات رصاص متقطع يصل إلى مسمعي بين الحين والآخر. وأخيرًا وصلت حينا. الحي الذي ولدت فيه.

بعض الأبنية قد تغير شكلها عما كان قبل بدء الاضطرابات في البلاد. طلقات رصاص هنا وهناك خرقت الحيطان، وجعلت مكانها ثقوب في الجدران. آمل أن لا يكون أحد قد أصيب في بيته.

بعد المشي تحت المطر، صار وقت الظهيرة. وصلت حينا وأنا أنظر إلى الوجوه المختبئة وراء نوافذها ... كانوا يظهرون رؤوسهم قليلًا من النوافذ، وعندما ألمحهم يختفون.

كانت البناية التي يقع منزلنا فيها مؤلفة من سبعة طوابق. نحن نسكن في الطابق السادس. كان والداي يحبان الأماكن المرتفعة. بعكس ناس كثر كنت أعرفهم. ويحبان شرب القهوة الصباحية في البلكون طوال شهور السنة. البلكون يتحول إلى غرفة صناعية لزراعة الورود أثناء الشتاء. مستغلين وجود الحواف الزجاجية التي يركبانها في الشتاء ليكون دافئًا وبعيدًا عن متناول المطر والعواصف والثلوج.

صعدت راكضًا على الدرج إلى البيت. كان هناك فتحات صغيرة في الحيطان على طول الدرج في أول ثلاثة طوابق. فتحت باب البيت ودخلت. كانت أمي في المطبخ، فسألت: "لقد تأخرتِ يا وردتي!".

فأجبتها: "هذا أنا يا أمي".

خرجت من المطبخ مسرعة راكضة فرحة. فقلت لها قبل أن أعانقها: "ماتزال جميلتي رشيقة!".

أمي: "مازال لسان ابني جميلًا مثل صاحبه. لم تقل لي إنك قادم، يالك من شقي، أحببت المفاجأة رغم أنني لم أتمنَ قدومك في الوقت الحالي، ولدي الكثير من المواعيد لليوم. هيا تعال لنجلس، بالتأكيد جائع".

"أمي أريد أن تخبريني بكل شيء، لماذا أخفيتِ عني هذا طوال هذه الشهور؟".

"كان هذا مطلب والدك. تعرف كم يخاف عليك، ولقد اتفقنا أن تبقى بعيدًا عن ما يحدث هنا. لقد مررنا بأيام قاسية. وحمدًا لله أنك كنت بعيدًا".

كان يبدو عليها الارتباك الشديد ... بدا واضحًا ذلك من فرك يديها ببعضها، فقلت لها وأنا أُمسك بيديها: "لكن كان عليكم إخباري، أنا ابنكم، ألست ابن هذه القرية؟".

"وماذا كنت ستفعل، هل ستوقف الحرب بقدومك؟ حمدًا لله أنها توقفت قبل قدومك".

"لا أعرف، لكن على الأقل،كنت سأكون على علم بالأحوال هنا، كاد يصيبني انفصام شخصية من كثر الاختلاف بالأخبار".

"يا بني كان والدك يخاف من تصرفاتك إذا ما عرفت. معظم رفاقك الذين كانوا في مدرستك تحولوا إلى متظاهرين في ليلة وضحاها، وراحوا يتصارعون مع السلطة، ولم نكن نعرف ما يحدث. ثم جاءت الحكومة بآلاتها العسكرية لمحاربتهم، ثم حاربوا الدولة، وسيطروا على البلدة، ثم استعادتها الحكومة. وهكذا هي حالنا منذ شهور".

سكتت وهي تضع يدها على فمها، فأخرجت من جاكيتي علبة الدخان وأعطيتها سيجارة، وشغلت لنفسي سيجارة.

فقالت أمي: "لطالما أحببت شرب السيجارة معك، سأصنع لك قهوة ثم نشربها على البلكون ... بالتأكيد اشتقت لذلك".

"نعم، فأنا ابن اثنين يحبون فعل ذلك".

ثم ذهبت إلى المطبخ لتعد لنا القهوة، بينما كنت أنا أدخن وأقوّم ملابسي. فسألتها عن أختي فقالت لي أنها برفقة ماريا يحضران لخطبة صديقتهما الثالثة سعاد، ولكنها تأخرت بسبب المطر.

كان يجب أن تكون هنا قبل ساعة. وقد اتصلت أمي بها وأخبرتها أنها في الطرق، ولما فتحت الباب أنا، ظنت أمي أن الواصل هي أختي. سألتني عن العمل في العاصمة وعن حياتي، وكيف هي أخبار العاصمة بعد كل ما حدث. محاولة التهرب من الحديث عن ما يجري في البلدة ... كأنها تعمدت ذلك.

وبينما كنت أحدثها عن ما سألت، فتحت أختي - التي تصغرني بسنتين – الباب، ودخلت. تخبأت أنا خلف ستارة النافذة ووقفت صامتًا. وما أن قالت أنا هنا، خرجت من خلف الستارة لأفاجئها. كانت لعبتنا المفضلة عندما كنّا صغارًا، فركضت نحوي واحتضنتها بذراعي ورفعتها عن الأرض. كدنا نطير من السعادة.

"لقد تغيرتِ كثيرًا، أصبحتِ أجمل".

جاوبتني ودمع في عينها قد لمع: "دع هذا الكلام لماريا".

" أوقفي هذا".

"هل خجلت؟".

"لا، لكن أريد الاطمئنان عنك أولًا".

"أنا بخير، أتابع دروسي على ما يرام. لقد انضممت إلى فرقة إسعاف في البلدة. نقوم بإسعاف المصابين بعد المعارك أو بعد القصف".

ثم بدا عليها الفرح والفخر في آن معًا، وتابعت وهي تعلق يديها حول عنقي، وتنظر نحوي: "لقد أنقذنا الكثيرين".

"وهل أنت سعيدة بهذا؟".

"رجال البلدة لا يستطيعون الخروج دومًا خارج البلدة للحصول على أدوية، فنخرج نحن بحكمتنا النسائية، والتدلل على الحواجز. يترك لنا العساكر الكلاب حرية المرور، وأحيانًا أعمل في بيت صديقك أحمد. أصبح مركزًا للعلاج في طابقه السفلي، ومكتب للإعلام في طابقه العلوي. تبرع بِهِ أحمد للبلدة ... الأمور تطورت بسرعة؟!".

قالت ذلك بنوع من الحماس بدا واضحًا على وجهها.

فقلت: "تخيلي أن أحد لم يقل لي كل هذا؟ وأنت من ضمنهم. هل تخفين كل هذه الإثارة عني؟!!".

"كنت أعرف أنني إن قلت اسم ماريا، فستأتينا مسرعًا".

"لم آتِ لأجل ماريا ... كنت سآتي قبل وقت طويل، لكن حظر التجول أعاق ذلك".

وبينما كنّا نتحدث دخلت أمي علينا معها صينية القهوة، وفيها ثلاثة فناجين، وقالت: "هيا إلى البلكون، أفسدت هواء الغرفة بدخانك".

"أمي أرجوك، البلاد تعيش حربًا، وأنت مازلت في نفس عادتك الصحية، أو هكذا يريدك والدي أن تكوني؟!".

خرجنا إلى البلكون ثلاثتنا. جلسنا على الأريكة الهزازة، وحمل كل منا فنجانه بيده، وبدأنا الاهتزاز والتأرجح. أمي إلى يساري، وأختي إلى يميني ... كم اشتقت لهذا".

***

ثم سكت 101. كان طوال مدة تحدثه عن وصوله إلى البلدة شغوفًا. بأن عليه الحماس بين كل مقطع وآخر، وأحيانًا توقف ليشعل سيجارة، أو ليأخذ بلعة بيرا. اعتدت رؤيته هكذا في كل جلسة. وأخبرني أنه يقوم بنفس العادة أثناء كتابة الرسائل لي.

101: "حسن! هل نتوقف عند هذا الحد؟".

أنا: هل تعبت؟

101: "لم تكن تسألني من قبل عما إذا كنت أتعب. كنت تقول نعم كما تريد".

"لديك الحق، أريد فقط التأكد من ذلك هذه المرة. أخاف أن يتعبك ما نفعل. أعرف صعوبته".

"في أحيان قليلة أتعب. لا عليك. ألم تقل أنه من الجيد التحدث في هذا الأمر؟".

"نعم، ولم يتغير في قولي شيء. لا تقلق. فلنتوقف عند هذا الحد".

"هههههههه، نعم ... سنتوقف. سنكمل حديثنا ونحن نشرب القهوة في مطبخك الذي نتحدث منه الآن، أشعر بالحماس".

"أتشوق لسماعك وأنا جالس بقربك. أوصل سلامي لماريا".

"هل ستوصل سلامي للمعشوقة الجديدة؟".

"بالطبع، سأخبرها بذلك. بكل سرور يا صديقي. ستفرح بذلك".

"أتمنى لكما التوفيق".

"وأنتم أيضًا، شكرًا".

"إلى اللقاء، في أوسلو".

"إن شاء الله ... إلى اللقاء".

***

اللقاء الأول في أوسلو .. الأحد ١٧-٠٧-٢٠١٦

مقهى في شارع كارل يوهانس غاتا

انتظرت هذا اليوم سبعة شهور.

كان قد أرسل لي 101 موقعهم عبر تطبيق واتسآب، الذي يتيح مشاركة الموقع مع آخرين. كان هو وماريا بلباسهم الصيفي الكامل، والقبعات الصيفية التي وُضِعت عليها النظارات الشمسية المتشابهة. ما أجملهما معًا!

عانقنا بعضنا أنا و101 بشدة، حتى أن ماريا غارت، وطلبت منا التوقف وهي تضحك، مشيرة لنا عن غيرتها. كان ملحوظًا تغير 101 تغيرًا كبيرًا، بدءًا من شكل الذقن والشوارب، حتى الصحة.

كنت أراه في محادثاتنا عبر سكايب بشكل مختلف نوعًا ما. فقلت أنه تغير عن آخر أسبوعين بعد مكالمتنا في سكايب. أكد لي هو ذلك بدوره، بإخباري عن النادي الرياضي الذي يرتاده مع ماريا أربع مرات أسبوعيًا، وأنه يشرب الحليب كل يوم صباحًا، كما نصحه

الطبيب، نظرًا لحاجته للكالسيوم، ثم مشينا معًا في شوارع أوسلو مدة ساعتين، ورأى كل منهما أوسلو التي أحبها أنا وأعرفها، وأكدوا لي أن عندي الحق في تسميتها أوسلو الجميلة، ثم عرجنا إلى مقهى كنا قد مررنا بجانبه بعد أن أبدت ماريا إعجابًا كبيرًا بمدخله، وطلبت مني هي و101 فور جلوسنا إلى الطاولة، أن أتجنب كتابة وذكر بعض الأحاديث الشخصية التي ستروبها بيننا صداقتنا ومن ثم وافقنا ثلاثتنا على تحديد ما يمكن ذكره قبل صدور القصة، إذا ما تم ذلك.

طلبنا ثلاثتنا ثلاثة كؤوس بيرا باردة، وجلسنا بالقرب من نافذة تطل على الشارع، وبدأ صديقي بمتابعة سرد القصة بعد أن تذكرنا معًا أين توقفنا في آخر حديث.

101:"فقالت أمي: "لم يجبرني والدكما على شيء أبدًا. لو لم نكن متفقان على كل شيء، لو لم نتبادل الثقة والاحترام، لما بقيت معه في حياتي، وأنتما تعلمان ذلك بحياتكما ... الاتفاق والاحترام أساس كل شيء يا أبنائي".

سحبت سحبة من سيجارتها وأتبعتها برشفة قهوة. وسكتت. كان يبدو عليها الضيق والتعب.

ثم بدأت أختي بالكلام: "سنذهب مساء اليوم إلى اجتماعنا الدوري لشلتنا. سيكون هناك احتفالًا خاصًا برأس السنة ... ما رأيك أن ترافقني؟ سنخبرك هناك بكل شيء، أعرف أن أمي لن تخبرك شيئًا، ستكون هناك ماريا أيضًا!".

فنظرت والدتي نحو أختي باستغراب، ثم قالت: "نعم، ليس هناك من شيء جميل لأخبرك إياه، الألم في قلوب الناس لا تراه العيون، ولا تستطيع شرحه الكلمات. ما حدث قد حدث. فلندعُ الله أن لا يتكرر. أفضل من الحديث عنه الآن، وأنت الواصل قبل قليل يا بني".

وتوجهت بنظري نحو أختي وقلت لها: "ألن تكفي عن ذلك، أفضل مرافقتك على أن أبقى هنا وحيدًا" ... ثم عبثت بشعرها، فوضعت فنجان القهوة على الطاولة بجانب الأريكة، وعادت، وسندت رأسها على صدري، ورفعت قدميها على الأريكة.

فقالت أمي: "الحمد الله أن لدينا بعض المونة التي ستؤمن لك غداءً شهيًا". فقلت لها أني سآكل أي شيء موجود، وأنه لن يكون هناك داعي لتتعب نفسها، لكن الأمهات لا ينتظرن موافقات الأبناء دومًا. فكيف إذا تعلق الأمر بالطعام؟!

***

كنت أتابع أنا وماريا سرد 101 لتفاصيل يوم وصوله إلى بلدتهم ولقاء أهله الأول بكل شغف واستمتاع. بينما كان يبدو على 101 الحنين لشيء لم نعرفه بعد. كان يشيح بنظراته عنا نحو النافذة، ويتوقف ليعلق على مداخلة صغيرة مني أو من ماريا، ثم يعود ليكمل حديثه.

101: "بعدها طلبت والدتنا منا أن نحضر أنفسنا للغداء. كان الغداء أرز وبجانبه بامية بمرقة رب البندورة مع القليل من لحم الغنم. على الغداء أخبرتني أمي باقتضاب وإيجاز، وهروب مستمر، عن القصف والمعارك التي عاشتها البلدة في ظل تناحر القوات فيما بينها، وأخبرتني بدورها أختي عن الجرحى والمصابين جراء تلك الأحداث، وعن النقص في الكادر الإعلامي الذي لا يستطيع تغطية كل الأحداث .. نقص في المعدات والخبرات أيضًا. تحدثنا عن والدي الذي لا يمل السفر ولا يعير في الفترة الأخيرة لغير عمله انتباه".

***

لما قال "والدي"، بدا عليه الافتخار والتعجب، فقلت له: هل لك أن تحدثني عن والدك؟

101: "بالطبع، والدي من الرجال المخلصين لأعمالهم وملتزمون جدًا بكلماتهم. لهذا السبب أصبح كثير السفر بعد أن كبرنا أنا وأختي، وأوكل مهمة تربيتنا إلى أمي، ولم نشعر بالتقصير والنقص في أي شيء كنّا نطلبه. هادئ الطبع بشكل عام، سريع الغضب إذا ما تهكم أحد ما على أفكاره ومبادئه. هل يكفي هذا؟".

"بالتأكيد".

101: ".. دخلت إلى غرفتي التي كنت أعيش فيها قبل استقراري في العاصمة. استلقيت على السرير محدقًا في السقف. ورحتُ نائمًا".

ماريا: "لطالما أحببت النوم يا حبيبي!".

فقمت بالإجابة بدوري: قد يكون النوم هو الحل الأمثل في بعض الحالات يا ماريا".

لم يعلق **101** على ما قلناه أنا وماريا، وأكمل حديثه.

***

101: ".. وفي المساء أيقظتني أختي، شربنا الشاي في الصالون، ونحن نتابع أخبار بلدنا على قنوات التلفاز ... كانت أختي تكذب كل ما يقال، وكأنها الوحيدة التي تعرف حقيقة ما يجري. بالفعل كانت

كذلك، واكتشفت ذلك بعد فترة قصيرة من تواجدي في البلدة. وذهبت معها إلى بيت صديقي أحمد الذي يقع في طرف البلدة.

حدثتني أختي في طريقنا، بالتفصيل الممل، عن سبب وقوع كل بناية مررنا بجانبها، وعن أسماء الناس الذين تم إنقاذهم وعن أسماء الذين راحوا ضحية ذلك القصف، وأيضًا حدثتني عن صديقي وائل، الذي تحدث معها وأخبرها بإعجابه بها، وأنها كانت ستتصل بي لتخبرني بهذا لولا أن الأوضاع تغيرت. كانت خجولة وهي تخبرني بهذه القصص".

ثم تناول كأسه وأخذ جرعة كبيرة لتروي عطشه.

ماريا: "لم تكن كذلك عندما أخبرتني بالأمر!".

101: "بالتأكيد تعرفين السبب. نحن تربينا على الصدق في القول والعمل. لا يمكن لأي أحد منا نحن الأربعة أن يكذب على الآخر. وكل شيء في عائلتنا كان قابلًا للحوار والنقاش. وكنّا نتحدث بجرأة في أمور كانت محرمة في بيوت أخرى. عن الدين مثلًا وعن الحب.

وصلنا إلى بيت أحمد في الوقت المحدد للاجتماع. كنا خمسة أشخاص "أنا، أختي، زوجتي ماريا، أحمد، ووائل المعجب بأختي".

تدخلت فورًا ماريا لتقول: "لقد تفاجأت بدخولكما معًا، كنت أود معانقتك، لكنني شعرت بالخجل، وبالتأكيد تعرف السبب".

101: "بالطبع، أحمد كان يكن لك بعض المشاعر، واحترمتِ هذا، لذلك فضلتِ التسليم بيدك علي. قلتِ لي ذلك سبع مرات حبيبتي!".

ماريا: "أردت أن يعرف حسن ذلك من خلالك. أوقعت بك".

فنظرت نحوهما وقلت: "والآن عرفت ذلك ماريا، يبدو أن شباب الحي كلهم كانوا معجبين بك، وأنت معجبة بأفضلهم، ألم تريدي قول هذا؟".

ماريا: "لا يصعب على الكتَّاب فهم هذا!".

101: "لم تخبر أختي أحدًا بوصولي إلى البلدة، ولا حتى بقدومي معها إلى اجتماع ذاك اليوم".

ماريا: "ليلة رأس السنة. يا له من يوم!".

101: "بدا الأصدقاء الثلاثة فرحين جدًا لرؤيتي وأكثرهم وائل، الذي كان ينتظر لقائي ليتحدث معي قبل كل شيء، عن إعجابه بالشقية الصغيرة، وكان قد وضع على طاولة في زاوية الغرفة التي جلسنا فيها أطعمة وأشربة لاحتفال اليوم، جلبها الأصدقاء معهم.

بدأ اللقاء بالعناق عناقًا أخويًا وكلنا مشتاقين، ثم جلسنا حول طاولة الطعام، وبدأنا بملئ كؤوس العصير والبيرا والكولا ... كلٌ حسب رغبته. الطاولة كانت مليئة بمأكولات من تحضير أمهات أحمد ووائل، وبينما كنت أسكب لنفسي كأس بيرا سألتهم: "من أين لكم هذه البيرا وأنتم كنتم محاصرون؟".

فنظر أحمد إلى ماريا وقال: "يضعون على الحواجز عساكر سهلين الإقناع، إذا ما كانت الفتاة التي تفعل ذلك اسمها ماريا". وسكت.

وتابع ملئ صحنه، كان يبدو عليه الضجر والتململ من الوضع الحالي وقتذاك. ثم بدأنا بإخبار بعضنا البعض عن حيواتنا وكيف مضت بها الأيام، وعن كل واحد منا وأين صار هو وأحلامه، وعدنا بالذكريات إلى أيام الطفولة حيث كنّا في نفس المدرسة. أنا ووائل وأحمد كنّا بنفس الصف حتى انتهينا من الثانوية.

ماريا: "كانت عائلاتنا على علاقة وطيدة وجيدة جدًا. نجتمع كل عطلة في بيت أحد الأُسَر. يلعب الرجال الورق ويتحدثون عن الأعمال بينما تنصرف النساء إلى تحضير الأطعمة والحلويات الشهية".

***

101: "لا يخلو الأمر من فروقات بسيطة في وضعنا المادي. لكنها لم تكن تلعب أي دور، ولم يكن لها أي تأثير. كل عائلة كان لها خصوصيتها الدينية والاجتماعية وعاداتها وتقاليدها، ولم يكن لهذا أي معنى في حياتنا. هكذا كان تفكير الآباء والأمهات، وهكذا استمرت العلاقة بين الأبناء".

ماريا: "بينما كان العكس في حالات أخرى".

101: "أخبرنا وائل عن بعض الحالات التي اختلف الإخوة فيما بينهم بين مؤيد ومعارض للدولة، وللحركات التي قامت ضدها".

ثم أضافت ماريا: "عائلات كثيرة خرجت من البلدة للحفاظ على أرواحهم".

101: "بعض عائلات أصدقائنا، حسب وائل، كانوا متزوجين من أديان أو مذاهب مختلفة، لجأوا إلى الطلاق ليحلوا مشاكلهم. كان خطأ فادحًا باعتقادي .. الوحدة الآن ضرورية. كيف تنقسم العوائل والبلدان في ظل حرب؟!".

ماريا وهي تحاول إخفاء دموعها: "ولا تنسَ الحصار الذي تعرضت له البلدة من مجموعات مختلفة هدفها السيطرة على البلدة وسكانها،

وحالات النزوح المتكررة التي حدثت خلال آخر ثلاثة شهور قبل وصولك".

101 بعد أن ضمها بيده اليسرى نحو كتفه: ".. ماريا وأختي كانتا في نفس الفرقة الطبية. هكذا سموها. مع مجموعة أطباء وممرضين من أربعة أشخاص، وثلاثة متطوعين. تقومان بتزويد أحمد ووائل بفيديوهات تلتقطاها أثناء عملهما الميداني برفقة الأطباء.

أخبرتني يومها أختي: "أحمد ووائل يمارسون عملهم في التصوير أيضًا، ونقل مجريات الأحداث عبر الإعلام. يرسلون مقاطع فيديو مصورة وتقارير إعلامية عن مجريات الأحداث، إلى محطات بلدان مجاورة، وعلى مواقع التواصل، وإلى محطات أجنبية خارج البلاد".

ماريا: "هكذا تعمل هذه الفرق المدنية الوحيدة في بلدة تعيش حربًا منذ ثلاثة شهور. هل يمكنك تخيل حجم العمل؟!".

101: "ثم بدأنا جولة ميدانية - كما يحلو لهم تسميتها - في المبنى. لقد تغيرت معالمه عما كنت أعرفه".

ماريا: "في الطابق العلوي تم تجهيز غرفة من غرف البيت بكمبيوترين ومعداتهما، ومن هناك كان يتم ممارسة العمل الإعلامي".

101: "وحدثوني عن النقص الدائم في الأدوية والمستلزمات الطبية. وعن المهربين الذي بدأوا العمل على الحواجز العسكرية، وعن الرشوة التي تُدفع لقاء كل شيء. ثم نزل وائل وأحمد وأختي إلى الطابق الأرضي ونزلنا خلفهم أنا وماريا. فقالت ماريا ونحن ننزل الدرج: هل ستعود إلى العاصمة؟ أتذكرين هذا السؤال؟!".

ماريا: "كنت أتلهف لسماع كلمة لا منك! بالطبع أذكره جيدًا".

101: "نظرت نحوها وقلت: لا أعرف لم أقرر بعد".

ماريا: "كاد يقتلني الجواب، فقلت له: لِمَ لا تنضم إلينا؟ نحتاج مصورين، رأيت مهارتك في التقاط الصور في فيسبوك. كنت أحاول إقناعك".

101: "هل تتجسسين علي؟!".

نظرت بين أقدامها وضحكت وقالت: "أحيانًا. وأي امرأة لا تفعل هذا حبي؟!".

101: "سأخبرك لاحقًا، لنكمل، سننتهي بعد قليل ونخرج، ثم نزلت الدرج مسرعة بدون أن تترك لي المجال لأجيب، ثم اجتمعنا مجددًا في طابق غرفة العناية والطوارئ. كانت مجهزة بخمسة أسرة فقط.

وبجانب كل منها عامود وأجهزة طبية مختلفة. قلة الإمكانيات واضحة جدًا، ومن ثم شرحوا لي عن عمل الأطباء هنا، ودورهم في إشعار الناس بضرورة التبرع بالدم لأبناء البلدة.

قال أحمد مبديًا حزنًا شديدًا في كلامه: "لقد استشهد خمسة وسبعون مدنيًا، بين رجل وامراة وطفل وشيخ كبير، قتلة، لن نسامح القتلة. سيأتي يوم العدالة يومًا ما. الكثير من الدمار والجرحى". وضرب بكف يده غاضبًا على الجدار.

وضع وائل يده على كتفي، ونظر نحوي وقال: "أهلًا بعودة رجال البلدة، تخيّل كم سيكون جميلًا لو أنك تبقى معنا يا صديقي".

فقلت وأنا أضع يدي على يده: "أخبرتني بذلك ماريا عندما تركتمونا على الدرج ونزلتم قبلنا، ألم تثنيكم الحرب عن مشاكستكم؟ كنت أفكر في الأمر حقيقة. يبدو أن الحرب قد انتهت ولن يكون هناك ما تفعله بعد اليوم".

فتدخلت أختي قائلة: "لا لم تتوقف. سيعودون، الكل يحلم بالسيطرة على البلدة وشعبها وثرواتها، لن نسمح بهذا ما حيينا".

أحمد: "لقد تحدثت لوالدي عن أننا نريد أن نبقى هنا دومًا. فقال لي لا حاجة لهم بالبيت. سنقاتل كلٌ بطريقته".

ثم نظرت ماريا نحوي تلك النظرة المليئة بالأنوثة وقالت لي: ابقَ معنا.

فجأة سمعنا صوت عيارات نارية كثيرة متتابعة.

صرخ وائل: "لقد عادت الحرب".

ماريا : "فخرجنا كلنا متجهين نحو خارج البيت".

101: "وإذا بالألعاب النارية تملأ السماء بألوان واستعراض حركات جميلة في السماء. وقفنا أمام البيت ننظر نحو السماء فرحين، دون أن يتحدث أحد بشيء. فقط ضحكة خفيفة على وجوهنا التي تغير لونها بسبب كلمة وائل "لقد عادت الحرب".

وقفت لأشعل سيجارة بعد أن انتهت الألعاب النارية، وبعد تفكير بطلبهم بالبقاء، قلت لهم: "حسنًا، فليكن إذًا. اتفقنا على العمل معًا".

فقاطعته ماريا: "كانت تلك أجمل الكلمات". ثم عانقا بعضهما.

***

101: "كنت معتمدًا في قراري على كل ما أعطيتموني إياه من معلومات على مجريات الأحداث، وعلى توقعاتكم.

بدا الجميع فرحًا جدًا بما قلته، وركضوا نحوي يعانقونني ويرحبون بي في الفريق. انتهى اللقاء مع تحديد برامج عمل ولقاء مرتين في الأسبوع إذا بقيت الأمور مستقرة، الثلاثاء والجمعة. الساعة السابعة مساءً حتى العاشرة، وأن يحضر كل منا ما شاء من طعام أو شراب معه، وأن نجتمع اجتماعات أكثر إذا ما دعت الحاجة أو إذا ما عادت الحرب مجددًا، وليت الحروب لها أعمار وتنتهي ولا تولد من جديد.

كانت ماريا وأختي تمشيان عند الباب وتتحدثان، وأنا أودع أحمد. عاد إلى بيته وأغلق الباب. اقترب مني وائل وأخبرني بقصة إعجابه بأختي، ورغبته بالزواج منها فور انتهاء الأحداث، وقال لي أنه تحدث معها وهي كانت بانتظار الفرصة لتخبرني بهذا. وبدوري ابتسمت وقلت له أنها أخبرتني، وقلت: "اسمعني جيدًا يا وائل، لن نجد زوجًا لأختي أفضل منك. وأنا موافق وسأتحدث مع أمي لتعطي موافقتها ثم نوصل الأمر بطريقة ما لوالدي تمهيدًا للقاء بينك وبينهم. أتمنى لكما التوفيق". عانقني سعيدًا فرحًا ونادى باسم أختي لتنظر نحوه ومن ثم التفت هي، وتوقفن الصبايا عن الحديث، وراح وائل يشير لأختي أن تأتي معه

ليوصلها إلى البيت، لتتركنا وحدنا أنا وماريا. ما أجمله من صديق. راحت أختي معه وبقيت ماريا".

ماريا: "أذكر جيدًا هذا اليوم، وكأنه البارحة".

فاقتربت من ماريا ضاحكًا، وقلت: "هل معنى هذا أني سأوصلك إلى البيت؟" .. وبدأ حديثنا.

"بكل وضوح".

"يبدو أنهما خططا لهذا؟".

"يا لهما من خبيثين".

"لقد تغيرت كثيرًا عن ما كنت أعرفه".

"وأنت أيضًا ... هل هذه تسريحة سكان العاصمة؟ أو فقط من يعملون بمجلات فنية؟".

"مازال لسانك الطويل مكانه. وهذا أمر جيد، باعتقادي، يثبت أن داخلك لم يتغير رغم تغير الشكل الخارجي".

"الحروب تغير الناس، لكنها لم تفعل هذا معي. لقد بقيت كما أنا ... لا يجب أن تقتل الحروب كل شيء فينا".

"أوافقك الرأي، ظننت أني سأجد الوضع مختلفًا. لكنكم بقيتم كما أنتم. أمي مازالت على عادتها وأختي وها أنت مثلهم. ووائل الذي لم توقفه الحرب عن الحب، وأحمد".

ماريا: "لقد فقد أحمد أخاه الصغير في قصف عشوائي طال مدرسة البلدة الابتدائية".

"حقًا؟ كان علي تعزيته. لم يكن لدي علم بهذا ـ".

"ستفعل ذلك لاحقًا بكل تأكيد ... سيكون هناك وقت لأحاديث كثيرة".

تابعنا سيرنا ونحن نتبادل أطراف الحديث عن الحياة في العاصمة وعن عملي السابق في المجلة مع المشاهير- حسب قولها. إنه وسط جميل مليئ بالكاميرات والأضواء. يعجبها هذا النوع من الحياة. أخبرتني كيف مرت بها الأيام خلال عملها في تصوير الأحداث، وعن مرافقتها لأختي في عمليات الإسعاف وأحيانًا في تقديم العون للأطباء. وأخيرًا وصلنا أمام بيتها.

"ها قد وصلنا".

"يبدو أن بيتكم لم يسلم من بعض الكدمات والندبات!".

"لم يسلم أي بيت من هذه الحرب".

وقفت أنظر نحوها، وهي تفعل ذات الشيء. هناك الكثير مما أرادت عيوننا قوله. جميلة جدًا. فرفعت يدها وقالت: "شكرًا على التوصيلة، هل من عناق أخير ... بالتأكيد كالذي حصلت أختك عليه".

وضحكا وهي تلف ذراعيها حول عنقي: "رائحتك جميلة"، فقلت لها بكل وضوح، وبدون أي تردد: "شكرًا، إلى اللقاء"، فقالت: "تصبح على خير".

دخلت ماريا إلى البيت وأنا تابعت سيري عائدًا إلى بيتنا".

***

101: "سأتوقف عند هذا الحد لهذا اليوم. ما رأيكما أن نتحدث في شيء آخر؟ وأفضل من ناحيتي أن نغير المكان، وأقترح أن تتجه بنا إلى مطعم ما تعرفه يا حسن جيدًا؟ ما رأيك؟".

ماريا: "أودّ ذلك بشدة. يجب أن ترتاح. ولكن لن يكتب حسن كل ما قلت ... فهناك أشياء لا يجب لأحد معرفتها؟".

"لا تقلقي يا ماريا، سيتاح لكما الفرصة لحذف كل ما لا تودون للآخرين معرفته، كما قلت لك من قبل".

ماريا: "حسنًا".

101: "هيا بنا إذن".

"سأكون مسرورًا لو سمحتما لي بدفع الحساب ... أنتم في بلدنا الآن ولسنا في برلين حتى تدفع يا 101".

ماريا: "إنه لطف منك يا حسن، لا نريد تكلفتك. يكفي ما تقوم به".

"لا عليك".

101: "أوشك على الموت جوعًا بسببكما! هيا بنا".

أوقفت بدوري آلة التسجيل في هاتفي الخلوي، ثم خرجنا من المقهى ثلاثتنا متجهين إلى مطعم باكستاني يقدم أرز البرياني مع الفروج.

بعد تناولنا الغداء وإبداء الإعجاب بالطعام من قبلهما، قمت بإيصالهما إلى الفندق. اتفقنا على أن نلتقي غدًا أيضًا في أوسلو. ولقاؤنا الأخير، بعد الغد، سيكون في منزلي. لابد من ذلك. ثم استقليت حافلة العودة إلى بيتي.

في طريق العودة إلى بيتي وضعت سماعات الأذن في الهاتف، وقمت بوضعها في أذني، ثم قمت بتشغيل التسجيل الذي قمت بحفظه بعد الانتهاء اليوم. استمعت لقسم كبير من التسجيل قبل وصولي البيت.

ثم أعددت الغداء وأنا أستمع لبقية التسجيل. عدت بالتسجيلات للأقدم، حتى يتسنى لي فهم وربط كل ما أخبرني به 101. حسنًا فعلت. سيجعل هذا أسهل عندما أقوم بتدوين كل ما سمعت منه قبل ومنهما بعد.

***

اللقاء الثاني في أوسلو .. الإثنين ١٨-٠٧-٢٠١٦

أمام مركز نوبل للسلام بجانب بلدية أوسلو

اتفقنا ثلاثتنا فور وصولي إلى الفندق، أن نجد لنا مكانًا يسمح لنا بالتدخين خارجه والاستمتاع بأشعة الشمس الجميلة في هذا اليوم الصيفي، وبالفعل فعلنا هذا.

كانا يرتديان ملابس غير ملابس البارحة. أخبراني أنهما قضيا بعض الوقت في السوق وأنهما تناولا الغداء في مطعم الفندق، وطلب مني 101 إخبار ماريا عن قصة الفتاة التي تعرفت بها، ففعلت بذلك. وأبدت سعادتها بقراري.

***

101: ".. يوم الإثنين 21-03-2011، استفقنا على صوت قذائف قريبة جدًا من بيتنا. هرعت إلى الصالون، فوجدت أمي جالسة على الأريكة وتحتضن أختي. كانتا في قمة الخوف. مرتديتان لباس النوم. "ما الذي يحدث؟" سألتهما.

أجابتني أمي وهي تهتز وتدعو الله أن تهدأ الأمور: "رأيت من النافذة أن قوات إحدى المجموعات من الجهة الغربية تقوم بقصف مواقع لمجموعة من الجهة الشمالية".

ماريا: "أذكر هذا، كان يومًا كئيبًا".

101: "ركضت نحو غرفتي لأبدل ملابسي وآخذ حقيبتي التي كنت أضع فيها معداتي، لأقوم بتغطية المعركة من على سطح بنايتنا، فاستوقفتني أمي: "أرجوك أن لا تخرج اليوم، أشعر أن شيئًا ما قد يحدث، ووالدك ليس معنا، ابقَ أرجوك". فما كان من رد سوى: "لا أستطيع البقاء يا أمي. إنه واجبنا الذي قطعنا لأجله وعدًا بعدم التأخر عنه".

ماريا، التي بدا عليها الوهن من بداية جلستنا: "ليتك سمعت كلامها وبقيت".

101: ".. وبينما كنت على السطح لأصور من مكان مرتفع أماكن صدور القذائف، وأين تستقر، حتى أقوم بإرسالها إلى المحطات التي كنت أرسل لها مواد مصورة لما يحدث هنا ..كانت القذائف تدمر مدينتي أمام عيني، ولم يكن بمقدوري حمل السلاح للدفاع عنها، كما

فعل الكثيرون حين سنحت لهم الفرصة. وبينما كنت أحاول تفقد المكان حولي، رأيتُ مجموعة مسلحة تدخل المبنى الذي أنا على سطحه. المبنى الذي نقيم فيه، وبدأوا بإطلاق الرصاص نحوي بشكل هستيري كثيف، الغاية منه إما إصابتي ومن ثم القبض علي، وإما قتلي. هكذا هو الأمر هنا. كانت الكاميرا العدو الأكبر لكل المجموعات".

ماريا: "أخبره. قبل أيام وفي ظل قصف كان من الجهة التي سيطرت عليها مؤخرًا، سقطت قذيفة فوق المكان الذي كنا نستعمله كمكتب أو منتدى نلتقي فيه نحن المصورون والصحفيون في البلدة، ومن هناك نمارس عملنا ونتصل بالقنوات لنخبرهم عما يحدث هنا من مجازر همجية بحق المدنيين، الذين لا ذنب لهم في الحروب الوسخة التي يشنها البعض بغير مسؤولية وبغير ضمير".

101: ".. لم أكن ساعة سقوط القذيفة هناك، لكنني ركضت نحو المكان من أقصى البلدة فور رؤية الدخان يتصاعد من الحي الذي كان يقع فيه مكتبنا. لم أكن أول الواصلين، كان قد تجمهر الناس حول المكان رغم التوصيات المستمرة للناس بعدم القدوم إلى مكان التفجير خوفًا من حدوث شيء آخر في نفس المكان ليحصد أرواحًا

أكثر. لكن وجدت الكثير من الناس تصرخ ونساء تبكي في الشارع. كان الدفاع المدني وعمال الإنقاذ والإطفاء قد بدأوا عملهم في رفع الأنقاض وانتشال الجرحى وإطفاء النار، وبعد ساعة من البحث بين الركام، أخرج عمال الإنقاذ جثتين مشوهتي المعالم. لم يتعرف أحد عليها. لمحت في معصم أحد الشهداء إسوارة بعلم البلاد، وعليها مكتوب كلمة حرية .. إنه هو!!

صرخت بأعلى صوتي وركضت نحو المنقذين وهو محمول على نقالة. إنه أحمد. مدير المكان. صديق الجميع وأخ الجميع. ضممته إلى صدري وأنا أصرخ اسمه بأعلى صوتي. لم أصرخ هكذا منذ ولادتي. رحل أحمد. ورحل معه المكان الذي تبرع به لأجل أعمالنا التي بدأناها معًا مع آخرين. كم كانت المصيبة كبيرة. برحيل أحمد ورفاقنا شهداء. لم يبقَ غيري في المدينة. سيكون علي البحث عن آخرين، فكاميرا واحدة وقلب واحد، لا يكفيان لاحتمال كل هذا النسيان.

لم أرَ أي سطوح قريب لأهرب إليه أو أقفز. لقد كانوا في الأسفل يصعدون تباعًا، بجهتي نحو الأعلى بكل تأكيد. نزلت راكضًا إلى الطابق الأخير الذي هاجر أصحابه قبل مدة، وتركوا بيتهم مفتوحًا لمن

يريد السكن فيه من الذين ينزحون إلى بلدتنا عند اشتداد الأزمات عندهم، بل في الأحرى عندما تكون بلدتنا غير محاصرة، وخوفًا أن يكونوا أول الشهداء إذا ما سقطت قذيفة فوق البناء.

كان بيتنا في الطابق الذي تحته مباشرة. البيت الذي لطالما حملتني فيه والدتي فوق ظهرها. بالحديث عن والدتي سأخبرك عن دورها في تعليم أبناء البلدة، فهي مديرة مدرسة البلدة، وكانت قد عملت في قطاع التعليم كمدرسة لسنوات قبل أن تحصل على علاوة من الوزارة. حدث هذا قبل الحرب طبعًا، في الحرب لا يحصل على علاوة سوى الذين يقتلون أكبر عدد من الناس الأبرياء.

كانت تدرس مادة علوم الأحياء. كانت تريد أن تصبح طبيبة، لكن علامات الثانوية لم تكن تكفي لدراسة الطب. فاختارت علم الأحياء. لقرب المواضيع من بعضها، الإنسان والجهاز العصبي وسواه.

لم أستطع التوجه إلى بيتنا خوفًا على أمي وأختي الصغيرة. يجب أن أجد حلًا يبعدهم عن أهلي. دخلت الشقة المفتوحة، ونسيت الباب مفتوحًا. كنت في عجلة من أمري جدًا.

كنت أبحث عن مكان لأخبئ حقيبتي، وكامل العدة التي أحملها، وكل كروت الذاكرة ... دخلت إلى المطبخ وكان هناك سقيفة، صعدت نحوها، ووضعت الحقيبة خلف خزان المياه. أغلقت الباب، وصعدت الدرج نحو السطح، لأبعد أنظارهم عن البيت، وهم كانوا يصعدون. لحقوا بي إلى السطح وحاصروني".

***

ثم توقف 101 عن الكلام، ليشعل سيجارة، وفعلنا مثله أنا وماريا. بدا عليه التخبط والتلعثم، ولمحت بعينيه ارتجاف السيجارة بين أصابعه، ثم عاد إلى الكلام.

101: ".. مجموعة عسكرية، استطعت عد تسعة منهم. التفوا حولي بشكل نصف دائري. كنت أقف في مؤخرة السطح مستندًا بظهري إلى حائط قصير، بالكاد وصل نحو صدري. نظرت إلى ورائي. الارتفاع عالٍ. لن أنجو إذا سقطت من هذا الارتفاع. لم يكن هناك شيء ليستقبل قفزتي سوى الأسفلت. كانوا يرتدون ملابس عسكرية مموهة جدًا، وبعضهم يرتدي البوط العسكري ... الجميع كانوا مسلحين من رأسهم حتى أقدامهم.

واحد منهم لديه كاميرا صغيرة في مقدمة قبعته العسكرية تصور ما يجري من أحداث حولها، واثنان من رفاقه كانت لديهم كاميرات حول خصرهم. أخرج أحدهم كاميرته، وكان قصير القامة ممتلئ البطن. كان هناك إشارة ما على وجهه بالأسود، ويضع الجميع خوذ حول رؤوسهم إلى أكتافهم".

ثم عاد لسكوته وراح يسحب من سيجارته بسرعة.

***

101: "تقدم مني أحدهم وقال لي: لماذا هربت؟"، فقلت له: "لا أعرف، لم أفعل شيئًا سيدي، كنت خائفًا".

"الذين لا يفعلون شيئًا، لا يهربون، يا ولد، ممَ أنت خائف؟".

فقلت له: "من الموت".

"وهل سيحميك الهروب من الموت؟".

"لا سيدي".

"هل لي بهويتك؟".

"بالتأكيد سيدي".

ثم رفعت يدي محاولًا إدخالها في جيبي لأخرج المحفظة، فقام أحد العساكر بضرب طلقة في الهواء لمنعي، فأرجعت يدي للأسفل وقلت له: "الهوية في جزدان في جيبي سيدي".

ثم أشار لأحد رفاقه، وهو طويل البنية يفوق طولي بعشرين سنتيمتر على الأقل. له عضلات موشومة بصور غريبة. وجهه لا يوحي بأي ملامح، مدهون بلون الطين. اقترب مني وقال: ضع يديك وراء ظهرك يا حيوان. ثم مد يديه إلى جيبي من جهة اليمين وأخرج الجزدان.

لقد أهداني والدي هذا الجزدان عندما عاد من زيارة إحدى الدول الأوروبية. كان يعمل في التجارة ... استيراد وتصدير الملابس، وأيضًا أحذية جلدية. كان يحب السفر لأوروبا، ويحب التمدن والحرية التي تعيشها تلك البلاد. أحضره لي هدية في عيد ميلادي الثامن عشر.

ثم قام بفتحه وأخرج الهوية منه، ثم قال اسمي على الملأ لكل من كان موجود، ثم ذهب بالجزدان إلى من طلبه وهو يهز برأسه وينظر نحوي نظرة لئيمة كلها توعُّد وتهديد".

رأيت 101 يشعل سيجارة أخرى. يده ترتجف وهي تشعلها. ماريا تنظر نحوه بجمود وتقول: "هل تعرف كم كان يقتلني غيابك؟".

ثم عانقها 101 بيده اليمنى بعد أن أعاد القداحة إلى جيبه، ثم قال: "..قال قائدهم، بعد أن أخرج الهوية ثانية وبدأ بهزها وضربها على الجزدان، أو هكذا بدا عليه كونه وقف أمامهم وهو الذي يخاطبني منذ البداية: "قلت لي لم تفعل شيئًا هاا؟ أين الكاميرا خاصتك؟".

"ليس لدي كاميرا".

"لا حاجة للكذب يا بني، نحن نعرف كل شيء عنك وعن رفاقك، مازلت صغيرًا على فعل هذا، هيا قل لي أين أغراضك، لدي عمل آخر لأقوم بِهِ بعد قتلك وإرسالك لعند صديقك أحمد". ونظر نحوي بسخرية.

وفور سماع اسم صديقي أحمد، ورئيسي الذي استشهد قبل بضعة أيام بقذيفتهم، جن جنوني. هجمت نحوهم أريد ضربه بكل ما أوتيت من قوة. رغم أنني لم أضرب أحدًا طيلة سنين حياتي. مسالمًا دائمًا وأبتعد عن المشاكل.

هاجمني رفاقه الذين وقفوا خلفه ووقفوا بيننا، وانهالوا علي بالضرب بأقدامهم، وبكل ما أوتوا من قوة وهم يشتمونني.

ثم أمرهم بالتوقف عن ضربي، وأعطاني فرصة أخرى لأفكر، ثم قال لأحد عناصره: انزلوا إلى بيته. أحضروا لي كل من في البيت".

وركضت عناصره فورًا نحو الدرج متجهين إلى شقتنا. بدأت الصراخ وحاولت ضربهم، أو فعل أي شيء، بصقت عليهم بكراهية، لكنهم أمسكوا بي من يديَّ، وداسوا على ظهري ـ".

ثم بدأ الدمع يسيل من طرفي عيني 101. قمت بوضع يدي على كتفه وطلبت منه التوقف. وقلت له أننا سنكتفي بهذا القدر لهذا اليوم. لكنه رفض وبشدة. وعاد ليكمل حديثه باكيًا حزينًا. لم يمنعه رجاء ماريا، ولا رجائي المستمر.

101: ".. أنا مستلق على بطني، وجهي نحو الأرض. لم أفلح في الوقوف. فقلت له أنه لا حاجة لذلك، فأنا لا أملك شيئًا مما يريد. لم يستمع إليّ. وضحك مع رفاقه علي. كان وقتها الظهيرة، كانت المدرسة مغلقة وأمي وأختي وحيدتان في البيت. لا أحد معهم غيري. والدي مسافر، وأنا خرجت في الصباح فور بدء القصف لأصور الأحداث وأوثق الحرب اللعينة.

ما هي إلا دقائق حتى عادوا ومعهم أمي بملابس البيت البسيطة. بالتأكيد لم يعطوهن الفرصة لستر جسدهن. أمي وأختي الصغيرة المدللة، وآخر العنقود، كانتا تبكيان وتصرخان والوحوش يجرونهن من شعرهن على الدرج. كاد قلبي أن يتوقف من ما شاهدته عيناي. يا لها من وحشية وهمجية لا يحتملها قلب مخلوق. صرخت: اتركوهم يا أولاد الكلب. اتركوهم وخذوني، سأخبركم بكل شيء ... اتركوهم. أرجوكم لا ذنب لهن. أنتم بالتأكيد لديكم أمهات ولا تقبلون أن يحدث هذا لهن".

***

مسح **101** دموعه وأخذ جرعة من الماء، ثم عاد ليكمل.

101: "بينما كان بعضهم يضحك ويستهزئ بضعفنا، اقترب أحدهم من القائد وقال له شيئًا ما في أذنه، مما استدعا بعد ذلك طلبه للعناصر الذين أمسكوا بأمي وأختي أن يتركوهن.

وفور تركهن ركضن نحوي ورمين بجسديهن فوق أقدام العساكر التي كانت تدوس فوق ظهري، يرجونهم أن يتركونا بحالنا ويرحلوا عن هنا.

قالت أمي موجهة كلامها للقائد: ألم تكن أنت تلميذًا عندي ذات يوم؟ ونظرت إلى واحد غيره وقالت: أنت ألم تكن والدتك تكتب لي رسائل في دفترك؟ لماذا تفعلون هذا يا أولادي؟ أليس هذا بلدنا جميعًا؟ لماذا تتقاتلون بدل أن تتحدوا وتحرروا البلاد من القتلة المجرمين؟ أليس لديكم إخوة أطفال؟ القتلة الذين يحرمون إخوتكم الصغار من العيش بسلام". سكتت بعد ذلك، وارتمت مجددًا فوقي وهي تضم أختي بذراعيها.

فقال لها القائد موجهًا كلامه إلى رفاقه: "لدي أوامر بأخذ ابنك للجهة التي تبحث عنه. ابنك خائن يا سيدتي. إنه يظهرنا بمظهر القتلة المجرمين ويكتب عنا ما لا يقبل به عاقل. إنه هو من بدأ الحرب ضدنا، وعليه أن يتحمل نتائج قراراته وخياراته". والتفت إلى أصحابه: "أليس كذلك يا رجال؟".

فبدأ رفاقه الصراخ: "يعيش القائد يعيش القائد".

وقال لهم : "أرجعوا النساء إلى البيت واسحبوا هذا الكلب إلى السيارة فهناك من ينتظره بفارغ الصبر، سنرى في أمر الحقيبة لاحقًا".

جاهدت أمي وأختي لمنع حدوث هذا، لكن ماذا تفيد مقاومة النساء أمام البواريد والرجال الكبار!!

كان صاحب الكاميرا الممتلئ يصور كل ما يحدث، وكل كلمة تقال. لقد كان يعمل مراسلًا حربيًا أيضًا، وعلى صدره كلمة الصحافة.

المهنة التي درستها أربع سنوات قبل بدء الحرب، وكنت أطمح أن أسافر مع والدي وأكمل دراستي هناك. الحلم الذي لطالما راود والدتي. ها هي ترى ابنها الذي حلمت أن يصبح مراسلًا وصحفيًا يُداس ويُهان لأنه درس وتخرج وعمل صحفيًا. يا لها من لحظات لن ينساها أحد منا على الإطلاق، قبل تحقيق العدالة.

أنزلوني وهم يضربونني على جسدي بأيديهم وأحيانًا بالبواريد. فقدت الوعي عندما ضربني أحدهم بمؤخرة بندقيته على رأسي. لا أعرف كم استغرق غيابي عن الوعي، أو إلى أين أخذوني. الآن يمكنني التوقف. عذرًا للإطالة".

ماريا: يمكنك التوقف متى شئت يا قلبي. أتمنى من أعماق قلبي أن تكون تلك المرة الأولى والأخيرة. حمدًا لله أنك بيننا الآن"، ثم عانقته ووضعت رأسها على صدره.

"سأوقف التسجيل الآن، لنذهب إلى مطعم جديد اليوم. ما رأيكما؟".

101: "أنا أشعر بالجوع فعلًا".

ماريا: "نستحق كلنا وجبة لذيذة".

"هيا بنا".

***

اللقاء الثالث في أوسلو .. الثلاثاء ١٩-٠٧-٢٠١٦

في بيتي

استفقت باكرًا صباح هذا اليوم. كنت قد أبرمت اتفاقًا مع ماريا و101 أن نتناول العشاء عندي. قمت بترتيب البيت وتنظيفه كما يجب، ووضعت الورود على الطاولة في مزهرية ملونة. فتحت النوافذ لأطرد رائحة سجائري التي شربت ليلة البارحة.

بينما كنت أقوم بتدوين ما أخبرني به 101 شربت كثير من السجائر والبيرا. لم أكن أحتمل سماعه ثانية ثم كتابته. كنت أوقف المقاطع مرات كثيرة، أفكر في مشاعره وهو يخبرني قصته، وفي نفس الوقت أرى نفسي كيف اعتقلوني وسحبوني بين الزنزانات المختلفة. كم كان قاسيًا أيضًا. ذهبت إليهما حيث يمكثان وعدنا ثلاثتنا إلى بيتي مستقلين الباص.

دخلنا إلى البيت وتعرّفا بأجزائه كي يكون من السهل عليهم مثلًا إيجاد المرحاض. بدون الحاجة للسؤال المحرج عنه، المكان الأكثر حاجة له

في الزيارات. ثم جلسا إلى طاولة الطعام بعد أن أبديا إعجابهما في البيت، ثم بدأت أنا تحضير الطعام. بينما كانا يتحدثان عن شكل البيت الذي يقترحانه لي إذا ما أردت تغيير الديكور، يا لهما من حشريين!

يريدون ترتيب منزلي حسب رأيهم، وضحكا كثيرًا بعد أن أخبراني أنهما اتفقا على فعل هذا معي لمجرد الضحك، وأنهم يشعرون أنهم في بيتهم. يا لهما من لطيفين إذًا!

ثم أخبرتهم عن آخر التطورات في الفيلم الذي أعمل عليه مع داليا وجوناثن عن السجون السورية، وكان واضحًا على وجههما الاستغراب من الفكرة التي نعمل معًا على تطويرها حول طريقة عرض الفيلم وتصويره وأيضًا محتواه، وأعطوني بعض الأفكار أيضًا، بالمجان حسب ماريا، ثم حان وقت العشاء.

جلسنا ثلاثتنا إلى الطاولة، وملأت لهم كؤوس النبيذ الأحمر، بينما كانت ماريا تقطع لنا شرائح اللحم التي أعدتها لهم بالفرن، ثم تناولنا العشاء وماريا تخبرني عن رأيها في الحياة الأوروبية، مبدية بعض

التحفظات كما جرت العادة وأنها تشعر بالأمان مع زوجها وهو الأمر الأهم الذي كانوا يسعون وراءه.

انتهينا من العشاء، ثم وضبنا الصحون من فوق الطاولة وقمت بتقديم طبق فواكه بعد الطعام، وبعض الحلويات الشرقية التي كنت قد اشتريتها في طريق عودتي البارحة ... حلويات سورية، واتفقنا على أن لا نشعل السجائر ثلاثتنا في الوقت ذاته. سنشعل السجائر تباعًا، 101، ماريا، وأنا، وبدأ 101 بمتابعة سرد الحكاية.

***

101: "استفقتُ بعدها لأجد نفسي مرميًا في غرفة صغيرة بدون ملابس، فقط ملابسي الداخلية، لا أستطيع فتح ذراعي فيها وبالكاد أستطيع مد قدميَّ فيها. بالكاد طولها متر ونصف، وعرضها أقل من متر، وبقعة دماء بالقرب من فمي. كان هناك ضوءًا خفيفًا يتسرَّب من فتحة صغيرة، يدخل منها هواء بارد في وسط السقف. كانت بعيدة عن متناول نظري، ولا أستطيع النظر منها، نظرًا لأن بعدها كان يعيق ذلك. ارتفاع الغرفة كان قرابة مترين ونصف المتر. حاولت مرات عدة ولم أفلح. فنسيت أمرها واعتبرتُ وجودها ضروريًا فقط

للضوء والهواء، ولا حاجة للنظر من خلالها، وما الذي سأراه من خلالها أصلًا؟!

سندت ظهري إلى الحائط ومددت قدميَّ التي وصلت تقريبًا إلى وسط الغرفة وتحسست البساط الممدود في أرض الغرفة. بساط رقيق لونه رمادي. عليه بقع يبدو أنها بقع دماء تعود لأناس دخلوا هنا قبلي وله رائحة كريهة. باب الغرفة حديدي لونه أسود. تسرب من جوانبه ضوء خفيف، وفي آخره من الأسفل حواف بارزة للخارج يدخل منها ضوء حفيف جدًا. يبدو أن هذا القسم من الباب قابل للفتح. الحيطان رمادية من النصف القريب من الأرض، وبيضاء من النصف العلوي. محفور عليها بشكل ما يشبه الخربشة.

جلست أنتظر وأترقب حدوث شيء ما. لم يكن في وسعي سوى تذكر اللحظات الأخيرة قبل وصولي إلى هنا، وحديثي مع والدتي. هل كان علي الانصياع لطلبها بالبقاء؟!

لا أستطيع أن أزيح عن فكري لحظات إحضارها هي وأختي إلى السطح .. كيف سأسامح نفسي؟ كيف سمحت لهذا بالحدوث لأختي

الصغيرة التي بالكاد أنهت دراستها العام المنصرم، وحصلت على علامات عالية تخولها دراسة قسم الطب في العاصمة؟!

وبالفعل قررت دخول الجامعة لتصبح دكتورة كما كانت أمها تحلم. اقترب الحلم من التحقق. كم كانت تُمارس هذا الدور في بيتنا. منذ صغرها وهي تحب تمثيل دور الدكتورة. كانت تحب مساعدة الناس، وحلمها أن تفتح عيادة مجانية لمساعدة مرضى السرطان. كانت على علاقات بأصدقاء في الغرب، تتحدث معهم عن حلمهم في فتح هذه العيادة وكانوا يعدونها بالمساعدة إذا ما استطاعوا لذلك سبيلًا.

لا أنسى تلك النظرة على عيونها لحظة وصولها السطح. كانت بحاجة لمساعدتي. كانت تنتظر ذلك. لم أستطع فعل شيء. كنت تحت أقدام كلاب الحكومة. كانوا يدوسون رأسي أمام نظر عائلتي. الحمد لله أن والدي لم يكن موجودًا لحظة حدوث الأمر. لا أعرف ماذا كان سيحدث له ... حمدًا لله.

كنت وحيدًا خائفًا مترقبًا. ضممت قدميَّ إلى صدري، وحاوطتها بيديَّ، وسندت رأسي على ركبتي. أسمع بين الحين والآخر صوت أقدام تمشي في مكان قريب من باب الغرفة، وأحيانًا يقطع خيالهم

على حيطان الغرفة عندما يمرون من أمام الأطراف، فيحجب جسدهم الضوء الداخل من أطراف الباب ومن القسم السفلي منه.

وأيضًا أصوات فتح أقفال وأبواب، وصوت صراخ، وأحيانًا أسمع أحدهم يغني بصوت جميل، ويعزف لرفاقه على العود. كنت أحاول بشكل ما التركيز في ما يحدث حولي لأعرف أين أنا أو على الأقل لأزيح عن مخيلتي صورة أمي وأختي الأخيرة، وصورة بلدتنا وأعمدة الدخان تتصاعد منها ... ليس من السهل ذلك.

أتعبني الجلوس على مؤخرتي، وشعرت بالبرد يتسلل لظهري المستند إلى الحائط مقابل الباب. استلقيت على ظهري ورفعت قدميَّ إلى الحائط الذي كنت أستند بظهري عليه، ورحتُ أنظر إلى فتحة السقف والضوء على وجهي. بدأ هذا الهدوء يقلقني. لم يكن لدي حقيقة ما أفعله، سوى التفكير بمن هم في الخارج الآن يبكون علي. يا له من شعور مؤذي!!

وبعد وقت طويل مضى، بدأ الجوع يتسلل إلى جسدي المتعب. فجأة فتح أحدهم شباكًا في أسفل الباب ورمى لي حبة بطاطا مسلوقة

وخيارة، بدون أن يقول أي كلمة، وأنا لم أقل بدوري أي شيء أبدًا. كانتا بمثابة هدية ربانية في وقت الجوع .. أكلت بشراهة.

وبعد أن تناولتهم، فتح الباب أحدهم وقال: "انظر إلى الحائط وضع يديك في كلسونك". ففعلت ذلك فورًا. دخل بدوره إلى الغرفة، وضع طماشًا جلديًا على وجهي رائحته مقرفة، وقال: "سأخرجك إلى المرحاض، لا تتذاكَ، لأن نتيجة ذلك ستكون وخيمة".

وفعلًا سحبني من قميصي بدون أن آتي من جهتي بأي حركة. مشيت بجانبه وأنا أنظر إلى الأسفل، تبين لي البوط العسكري الذي يرتديه. ولون بنطاله المموه. نفس الملابس التي كان يرتديها من أحضرني إلى هنا. رماني في غرفة فيها حمامات بجانب بعضها، وقال: "أسرع يا حيوان لدي الكثير غيرك". وبدأ بالعد، واحد، اثنان ...

قمت بالضغط على قضيبي حتى يفرغ بسرعة. فعلت ما فعلت قبل أن يصل بالعد إلى ثلاثين، ثم قلت له: "انتهيت سيدي"، قال: "اشرب من الصنبور حتى تشبع، واخرج بعدها يا حيوان ... أم ستنتظر أن أخرجك بنفسي. ضع طماشك على عيونك، ويديك في الكسلون كما أول مرة. واخرج. ستعتاد ذلك في كل مرة ... فهمت؟".

فقلت له: "نعم سيدي"، وفعلت ما أمرني به، ثم قلت له: "جاهز".

سحبني من قميصي إلى غرفتي، وأمام الباب رفع الطماش عن عيني، لمحت رقم 101 مكتوبًا على الباب بلون أبيض، والباب لونه من الجهتين أسود ... مر".

"ألهذا طلبت مني مناداتك بهذا الاسم؟".

"نعم، هكذا اعتادوا مناداتي حتى أنني نسيت اسمي الحقيقي في بعض مرات التحقيق الكثيرة".

***

ثم تابع ..

"مرت الأيام الأولى على هذه الحال. يفتح الباب أحدهم الباب يرمي لي خيارة وبطاطا مسلوقة، ثم يأتي ليخرجني إلى المرحاض. كل شيء يعاد كما هو بنفس الترتيب. لقد أكلت حتى الآن ست خيارات، وست بطاطات. تم حرماني مرة من دخول المرحاض.

استعملت المرحاض خمس مرات، وشربت خمس مرات. طريقة جيدة لِعد أو لترتيب لأحداث بناء على هذه المعطيات الوحيدة حتى

الآن. لا شيء غير ذلك ... دون أن يتوجه لي أحدهم بكلمة أو سؤال، والخوف الذي كان يرافق هذه الأيام يزداد كل يوم.

لماذا لا يسألونني عن شيء؟ لماذا لا يحققون معي؟ ما الذي يجري؟

كل يوم أسمع أصوات أغاني عسكرية، ومن ثم يرفقها صوت رجال تغني مع الأغاني، ثم حركات رياضية على وقع الأحذية العسكرية. بين الحين والآخر كنت أسمع صوت لعبهم بالورق ويصرخون، ويضربون بعضهم لأجل لعبة. كذلك الأمر كان هناك أصوات صراخ بين الفينة والأخرى. الأمور لا توحي بالخير أبدًا. هذا الإهمال بدأ يثير قلقي، ويزيد خوفي.

ثم جاء السجان وفتح شباك الباب السفلي. إنها المرة السابعة التي أراه فيها، ورمى لي، كما يرمى للكلب طعامه، قطعة فروج ورغيف خبز.

بدت واضحة قطعة لحم الفروج من الضوء الذي تتركه النافذة خلفها. لم أصدق أبدًا. بدأت أظن أنه حلم أو هلوسة. زحفت نحوها وبدأت آكلها بدون توقف حتى انتهت، وبعدها بدأت برغيف الخبز حتى أنهيته ... أنا جائع دومًا هنا. لا يكفي ما يقدم لي من طعام أو ماء.

أقضي معظم الوقت أفكر، أو جالسًا مستندًا إلى الحائط ليتسع مكان لقدمي الطويلة ولأحافظ على طاقتي أيضًا كنت أنام بدون أن أعرف من الوقت نمت ... فكمية الماء والطعام قليلة جدًا.

وبعدها فتح لي السجان الباب، وطلب مني ارتداء الطماش فقط، وفعلت ذلك فورًا. الأصوات التي تصدر في المكان هنا بدت واضحة ودرجة الصوت مرتفعة عن ما كانت وأنا بداخل الغرفة.

سحبني بجهة معاكسة لجهة ذهابنا إلى المرحاض. سلكنا اتجاه اليمين والمرحاض من جهة اليسار. إذًا، فهمت الآن بعض الأمور. لسنا في طريقنا إلى المرحاض بكل تأكيد ... كنت أحدث نفسي بينما كان هو يسحبني من يدي اليسرى. هل نقلوا المراحيض؟ لن أفهم شيئًا، لم يكن لدي أجوبة على هذه الأسئلة. وبينما كنّا على هذه الحال، السجان يسحبني، وأنا أفكر في نفسي، طلب مني التوقف فجأة فوقفت منتظرًا ومترقبًا. أطبقت أصابعي مع بعضها وأفركها. كنت أقرمط شفتيَّ بأسناني.

فُتح باب غرفة ما، وطُلِب من السجان أن يدخلني. سحبني من يديَّ وأنزلني درجتين بيده ثم قال له أحدهم: "دعنا لوحدنا". وبالفعل تركنا

وخرج وأغلق الباب وراءه. فجاء صوت قريب وقال: "هل ستتعبني يا 101، أم أنك ستخبرني الحقيقة من تلقاء نفسك ولا داعي لسلوك أساليب أخرى معك؟".

***

"أخشى أنني سأتوقف عند هذا الحد يا حسن".

ماريا: "ما بالك حبيبي؟ هل أنت بخير؟".

"نعم عزيزتي، لكنني لا أريدك أن تستمعي لبقية الكلام من هنا. أخاف عليكِ من سماع التكملة. تعرفين ماذا كان يحصل لمن يلقون القبض عليه .. أليس كذلك؟".

ماريا: "بلى حبيبي".

"كما تريد يا صديقي. غدًا سيكون موعد رحيلكم. لِمَ لا نستغل بقية الليلة في شوارع أوسلو؟".

ماريا: "سيكون وداعًا جميلًا بهذه الطريقة. أحب ذلك".

101: "لقد قررت الأميرة، هيا، أطفئ جهازك لنتابع الحديث بحرية يا..!".

"أضحكتني، حسنًا يا صديقي. سأعود لترتيب البيت لاحقًا. لولا أني عدت لصديقتي القديمة، لوجدتني أنظفه قبل خروجي. من يدري، لربما تعود بصديقة جديدة".

ماريا: "اترك المكان كما هو، لو فعلت هذا، سأخبرها بذلك".

101: "اهدئي يا روحي، إننا نمزح. كما تعرف يا حسن النساء تدافع عن بعضهن. هيا بنا".

"أعلم، هيا".

ثم خرجنا نحو شوارع أوسلو. مررنا بالقرب من دار الأوبرا ثم صعدنا إلى سطحها معًا، ونحن ننظر نحو البحر والبنايات الجديدة التي يتم إعمارها. تناولنا الأيس كريم وشربنا القهوة وتحدثنا عن كل ما يمكن للمرء التحدث عنه ... كانت من أجمل الليالي التي سترافقني طويلًا في حياتي، ولن تمحى ذكراها الأيام. أوصلتهما إلى الفندق بعد أن أشرت لهم كيف السبيل إلى المطار غدًا. لم يقبلوا أن أرافقهم غدًا إلى المطار بحجة أنه ليس من الضروري دفع تكاليف مرافقتي لهم. هكذا بكل بساطة ووضوح.لو أنني كنت في بلد عربي ولم أرافق الضيف الراحل من زيارتي، لكنت أصبحت حديث الحي لشهور، ولا أبالغ لو قلت

سنين، فالضيافة وكرمها وآدابها، لا يمكن المساس بها. هكذا تربينا أو هكذا كان العرب منذ بدايتهم، ولكنهم اليوم ... حتى في بلدانهم، يبحثون عن الأمان، عن الحياة التي يحلم بها البشر. ثم عدت إلى بيتي.

***

محادثة سكايب .. الأحد ٢٧-١١-٢٠١٦

من باريس

مضت أربع شهور على آخر حديث بيننا أنا و101، منذ وداعنا الأخير أمام الفندق في أوسلو. أخبرتني ماريا برسالة على فيسبوك بوصولهم، حسبما اتفقنا. لا اتصال بيننا ولا حتى مجرد رسالة.

لم أكن متأكدًا من أنه يريد متابعة الحديث. اكتفيت طوال تلك الشهور بالاطمئنان عنه عن طريق زوجته ماريا. كانت تنقل لي أخباره كل شهر تقريبًا. تخبرني أنه مشغول دومًا بعد عودتهم من أوسلو. يعمل مع والده في تجارة الجلود والزيتون من تونس إلى إيطاليا أو إسبانيا، وأخبرها بدوري عن ما آلت له الأمور بيني وبين براءة.

بدت مرتاحة لهذا التطور الملحوظ بيني وبينها، وكانت تدعو لنا بالاستمرار وكنت أقوم بما كانت تعلمني به أحيانًا. النساء تفهم الرجال أكثر مما يفعل العكس، أو على الأقل حسب رأي. أخبرتني ماريا عندما سألتها عن غيابه عن فيسبوك وواتسآب، أن 101 يغلق

أحيانًا حساب فيسبوك خاصته لفترات طويلة، وأنه اشترى لنفسه رقم تليفون جديد لا يعرفه سوى القليلون الذين يعمل معهم، وأنه التفت مؤخرًا للتجارة وهي أول اهتماماته وأهمها وأنه أصبح في وضع مادي ومالي مريح، لكنه كثير السفر والتنقل ضمن فرنسا ولا يلتقيان كثيرًا، وأنها قلقة دومًا على صحته. بينما كنت أخالفها الرأي دومًا، وأخبرها بضرورة ترك حرية القرار له، وأنه ذو عقل ناضج ومسؤول عن نفسه، ولكن الأمهات والزوجات والبنات والجدات والخالات والعمات وكل نساء الأرض، تحركهن مشاعر الأم الأنثوية قبل كل شيء، من ضمنها الحنان والرقة والخوف على الشريك، وغيرها.

مساء الأحد، كنت أتابع الأخبار في فيسبوك من حاسوبي، وفجأة تصلني رسالة سكايب. فتحت الرسالة فورًا. لم أعتد استخدام سكايب مؤخرًا مع غير 101. بالفعل كانت الرسالة منه. يسألني فيها عما إذا كنت متاحًا أم لا، فأجبت بنعم، وطلب مني أن نتحدث بالصوت والصورة. تبادلنا كلمات العتب التي ما لبثت أن تحولت إلى اشتياق وإخبار بكل جديد. أخبرني عن مشروعه الجديد الذي يديره والده وأصدقاؤه الفرنسي والإيطالي والإسباني.

يشترون الجلود والزيتون من بعض البلاد العربية ويبيعونها للمعامل هنا في أوروبا، وأيضًا في مجال التصدير إلى كندا، بعض منتجات الشركات التي يتعاملون معها، وأن هذا العمل يدر عليه بالمال الوفير، وأخبرته بدوري عن مشروع فيلم السجون. قبل ثلاثة شهور انتهينا من تصويره. كان التصوير لمدة ثلاثة أيام في قبو مجهز على شكل سجن.

كما دعونا أربع سجناء سوريين سابقين للمشاركة في إعادة التجربة والحديث عنها. حضر اثنان منهم، وامتنع اثنان في اللحظات الأخيرة قبل البدء بالتصوير. الأمر ليس بالسهل. أتفهم ذلك.

وقلت له أنني انتهيت من مدرسة اللغة بعلامات عالية، وحصلت على عمل كمترجم في مؤسسة ترجمة هنا في أوسلو. ففرح كثيرًا بهذه الأخبار، ودعا لي بالتوفيق، وأخبرته بضرورة عدم التأخر على الشريكة الرقيقة ماريا، فضحك بعد أن أخبرته أنها تخبرني بكل شيء عنه، ولم يسِئه ذلك أبدًا، وطلب مني التفكير مليًا بأمر الزواج بعد أن أخبرته عن رغبتي بذلك. ثم عدنا لتذكر آخر ما كتبت بعد آخر لقاء بيننا في أوسلو، ثم بدأ بالتحدث بعد أن أشعل سيجارة وشرب جرعة بيرا.

كان يبدو عليه الهدوء هذه المرة أكثر من المرة السابقة.

101: ".. لم أجب على السؤال. كنت أتصبب عرقًا. فأعاد السؤال موجهًا كلامه إلي بعد أن قربَ فمه من أذني اليمنى. وصلت رائحة الدخان المنبعثة من فمه إلى أنفي. فقلت: "لا أعرف عن أي طريق تتحدث سيدي". فقال بلهجة غاضبة: "يبدو أنك ستتعبني".

قال لي هذا، ثم توجه بالحديث لشخص ثالث كان يشاركنا الغرفة بدون أن يصدر عنه صوت: "ارفعوه". فاقترب مني هذا الشخص ووضع علاقة من نوع ما بين يدي، ربطها بالكلبشات، فسمعت بعدها صوت جنزير يرتفع، وبلحظات بدأت يداي ترتفع وكأن أحدهم يسحبني إلى الأعلى.

أصبحت معلقًا من يديَّ إلى الأعلى، ثم قام بدفعي لجهة اليمين وما هي إلا لحظات حتى عاد لينزلني. لكنني نزلت في بركة ماء بارد، وليس على الأرض. كانت برودة الماء تتسلل إلى جسدي عبر أقدامي.

بدأت أفقد الإحساس بقدميَّ لشدة البرودة، وكان هناك قطع ثلجية، كنت أِشعر بملامستها لقدميَّ. سرعان ما توقف هذا الشعور. فصرخت طالبًا الرحمة، لكن لا مجيب. بدأ من كان حولي بالضحك، ثم عاد صاحب الصوت الغاضب ليسألني عما إذا كنت سأخبره الحقيقة

فورًا أم أنه سيتعب معي وبدوري كررت الإنكار. أتفهمني يا حسن؟! لا أستطيع الاعتراف بشيء.

وصل الماء المثلج إلى صدري، وبدأ معه خوفي من أن يتوقف قلبي نتيجة البرد. وضع أحدهم يده على رأسي وبدأ بدفعه إلى الماء. كنت أحاول هز رأسي لمنع حدوث هذا، ولكني لم أفلح. بقيت على هذه الحال مدة ليست بقصيرة. تذكرت وقتها كل ما يمكن للمرء تذكره قبل لحظات الموت. كنت أبكي وأصرخ مستنجدًا لكن لا أحد للمساعدة هنا. هم موجودون لجلدي فقط ... شعور موجع الخذلان.

كانوا يضحكون ويستهزئون بي وأنا أقترب من التجمد، ثم أخرجوني من الماء ورموني على الأرض، ثم أمرهم بإعادتي إلى المنفردة. قام أحدهم بسحبي من يديَّ إلى المنفردة. فقدت الوعي فور وصولنا إلى المنفردة، ولم أستفق حتى قدوم السجان بعد وقت طويل. رمى لي حبة البطاطا المسلوقة مع الخيارة، ثم غادر".

ثم سكت 101، ولم يقل شيئًا. فلم أقل شيئًا بدوري ... اكتفيت بمراقبة تعابير وجهه.

***

كنت قد سمعت هذا النوع من التعذيب سابقًا من معتقلين سابقين قابلتهم في أماكن متعددة. لم أتعرض لمثل هذا النوع من التعذيب بهذا الأسلوب، لكنني أشعر الآن وأنا أنظر إلى وجه 101 بكم الألم الذي قد يتركه تركك في الماء البارد والضحك عليك في نفس الوقت. أشعل 101 سيجارة. وراح يحك شعره الذي لم يحلقه منذ لقائنا في برلين. هو أخبرني بهذا عندما زاروا أوسلو، وقال أنه سيتركه ليطول. لا عيب في ذلك. أشعلت سيجارة مثله، وانتظرته ليعود لكلامه.

101: "كنت متعبًا جدًا، لا طاقة لدي لأنهض وأتناول الطعام. لم يكن لدي شهية لذلك. الوجبة السابعة وقطعة الفروج هذه، ومن ثم جلسة تعذيب بالماء البارد ... هل يجب أن يعني هذا الكلام شيء في المكان هذا؟!

بقيت ممددًا في أرض الغرفة حتى فتح السجان الباب وقال: "انهض إلى المرحاض". حاولت سحب جسدي على الأرض لأخرج من باب الغرفة. لم أستطع، ولم ينتظرني بدوره. أغلق الباب في وجهي وهو يشتمني بأقذع الشتائم. قال: "ستنتظر ليوم غد". هل قصد بكلامه أنني أخرج إلى المرحاض مرة واحدة كل يوم؟! هل يعني أنني هنا منذ

ستة أيام؟! ولكن هناك سبع وجبات؟ هل تم فعلاً حرماني من المرحاض ذلك اليوم؟ أم أنه تم نسياني عمدًا؟ هل هو نظام هنا هذا الترتيب؟

لا أعلم. كانت الغرفة ليست بتلك البرودة. حرارتها مقبولة. لكنني كنت أشعر بالبرد. يبدو أن آثار وضعي في الماء البارد بدأت بالظهور. كنت أنام بين الحين والآخر من شدة التعب، وأجمع نفسي وأثني ركبي حتى صدري كي أشعر بالدفء. بقيت على هذه الحال حتى عاد السجان مرة أخرى ورمى لي الخيارة وحبة البطاطا. يبدو أنه يوم جديد! أم أنني أحصل كل يوم على وجبتين؟ كيف يتم احتساب الطعام أو المرحاض؟ مرة كل يوم أم مرتين؟ لا أعرف الوقت هنا. ولا وسيلة حولي لمعرفته. أريد فقط معرفة الوقت. لم أستطع أكل الوجبة السابقة. ها أنا جالس مع حبتين بطاطا وخيارتين وألم ناتج عن الشد العضلي الذي أصاب جسدي نتيجة صدمة البرد في الماء البارد. استجمعت قواي وسحبت الطعام نحوي وسندت ظهري إلى الحائط مقابل الباب، ثم بدأت الأكل. أكلت ونمت. كنت أنا كثيرًا أهرب من الواقع. النوم ساعدني كثيرًا لتخطي الفترة تلك.

كنت أنام لفترات طويلة. أخرج فقط إلى المرحاض وأشرب الماء. مرت ثلاث وجبات ولم آكلهم. اعتقد السجان أنني مضرب عن الطعام. فقام بضربي بركلات على جسدي، وأمرني بالأكل وإلا سيستعمل أسلوبًا آخر، وكنت أعرف قصده بكلمة أسلوب آخر".

سكت 101 ليشرب الماء. بدأت بدوري بتفحص وجهه وحركات يده. لم يكن هناك توتر أكثر مما سبق.

***

101: "مر الآن ست وجبات بعد جلسة الماء المثلج. فُتح الباب السفلي من باب المنفردة ورموا لي قطعة لحم مسلوق مع رغيف خبز. رائحتها ملأت المكان، ورائحة الخبز الذي مازال ساخنًا طازجًا. أقسم لك أنني خفت من اللحم والخبز. مازلت أذكر ما حدث بعد نفذ الفروج. وبالفعل ما أن انتهيت من تناولهما، أخرجوني إلى المرحاض. وعدت إلى المنفردة. عادوا لأخذي بعدها ... كما قلت لك، عرفت أنه سيكون هناك شيء ما بعد اللحم. جلستُ إلى كرسي ما في غرفة ما سحبني نحوها السجان، ثم قاموا بتقييد يديَّ وقدميَّ إلى

الكرسي، ثم وضعوا قطعة قماش على وجهي بعد أن أرجعوا رأسي إلى الخلف.

ثم قاموا بسكب الماء فوق قطعة القماش ووجهي .... كدت أختنق. لم أستطع التنفس، وكنت أشرب الماء من فمي وأنفي، ثم ضربوني بيديهم على وجهي وبطني. قاموا بسكب الماء عدة مرات على وجهي. يسألونني عن من يقوم بإعطائي المال لأقوم بالتصوير. سؤال واحد من قبلهم، وجواب واحد من جهتي: "لا أحد". لم يصدقوني، ثم أعادوني إلى المنفردة بعد أن أمرهم بذلك الشخص الذي كان يسألني. هكذا بكل بساطة. بقيت في الغرفة ست وجبات جديدة، وخمس مرات حمام.

ثم عاد نخذ الفروج للظهور مجددًا ... هل هو نظام ما هنا؟ نفس الأصوات حول الغرفة .. نفس أصوات السجانين وملابسهم .. نفس الأغاني. يحدث كل شيء بنفس التوقيت دومًا وبنفس التراتبية.

بعد انتهائي من تناول نخذ الفروج ورغيف الخبز، دخلت المرحاض وشربت وعدت إلى الغرفة. كنت أنتظر فتح الباب. قررت مهاجمة الحارس لأرى المكان على الأقل، وإن قتلوني لن أكترث. فأنا لم يعد

لدي شيء لأخسره. الوحدة التي أعيشها أصابتني بالجنون وعدم المبالاة.

أريد أن أعرف أين أنا ومن هؤلاء. هذا من حقوق أي سجين في العالم. وما أن فتح الباب حتى ركضت نحوه ورميته أرضًا من بطنه. ورحت أركض باتجاه الغرف التي كان يأخذني نحوها.

ممر طويل يصل في آخره إلى ساحة كبيرة فيها أبواب لغرف ما على جانبيها، وهناك فتحة في سقف البناء على ارتفاع عشرة أمتار أو أكثر يدخل منها الضوء إلى المكان. على يسار الممر كتبت كلمات على أبواب كثيرة منها (المستودع، الأمانات، التحقيق١، التحقيق١٠..) ثم هاجمني عدة عناصر جاؤوا بناء على صراخ الحارس الذي دفشته. حاصرني أربعة رجال. رأيت وجوههم. كلهم يضعون علامات على خدودهم، والمكان مطلي بلون رمادي، وصور رئيس الدولة بلباس عسكري كانت تتوسط جدار بجانب المطبخ.

خرج رجلان من المطبخ، فأصبح العدد ستة رجال حولي. باغتني واحد منهم من جهة الخلف وأمسك بيديَّ، ثم ركض آخر وأمسك قدمَّي. لم أستطع سوى الصراخ: "أريد أن أعرف أين أنا ومن أنتم.

أخرجوني من هنا. أريد محامي". حتى تركني من كان يمسك بي من الخلف، فضربني أحدهم بآداة بلاستيكية فيها صاعق كهرباء.

سقطت أرضًا مغمًى علي. استفقتُ لأجد نفسي في غرفة، مقيدًا إلى سرير خشبي مفتوح اليدين والقدمين متباعدتين. بدون طماش.

جاء صوت رجل من خلف رأسي يسألني عن الجهة التي أعمل لديها وعن من يقوم بإعطائي الأموال لقاء عملي في البلدة كمصور، وكان جوابي نفسه: "لا أحد. أعمل وحدي بدون أي دعم خارجي أو داخلي". لم يصدق ما قلته، وأمر رجلًا آخر أن يبدأ. لم أفهم ما قصده بكلمة "ابدأ"، لكنني أشعر بأن الشيء الذي أستلقي فوقه بدأ بالانغلاق على بعضه، ومع ذلك الانغلاق بدأ جسدي بالانثناء نحو الأمام. كاد رأسي أن يلتقي بركبتيَّ. شعرت أنني أتمدد.

صرخت كثيرًا لشدة ألم الانحناء والضغط على ظهري ومعدتي. وكانوا يضحكون علي بدورهم، مثل كل مرة. ثم عاد السرير ليرجع إلى الوراء ويشد معه جسدي إلى الخلف. كنت أشعر أن أسفل ظهري كسر. ألم رهيب. لم يمر جسدي بهكذا ألم بحياتي، ولا ألم ولادة طفل

جديد. ما يؤلمني أكثر ضحكهم علي. صرخت وبكيت. لا نفع لذلك. فقدت الوعي".

ثم سكت 101. نظرت نحوه بدون أن أستطيع قول كلمة واحدة. كانت دموعي تسقط من عيوني من تلقاء نفسها، دون حاجة لتدخلي. يا لهم من سفلة قتلة مجرمين!!

أشعر جيدًا بشعوره. أنا أيضًا قاموا بالضحك علي مرات كثيرة، بينما كنت أبكي وأطلب العون من الله. في إحدى تلك المرات قال لي السجان: إن الله ليس موجودًا هنا، وأن لا أحد غيره يملك حياتي.

***

101: "ما رأيك أن نتوقف عند هذا الحد؟".

"سيكون من الجيد فعل هذا لكلينا. سأحتاج الكثير من الوقت لكتابة كل ما سجلت اليوم".

"بالتوفيق، سأكون منشغلًا حتى ما بعد رأس السنة. لكن ما رأيك أن نتحدث عشية يوم عيد ميلادك؟ هل قلت لي أن يوم ميلادك في أوائل كانون الثاني؟".

"نعم. هو كذلك، أوائل كانون الثاني. يا لها من ذاكرة قوية لديك!".

"حسنًا إذًا، سنفعل هذا. أراك حينها يا صديقي. انتبه لنفسك جيدًا".

"أتطلع للقائك مجددًا، وأنت أيضًا انتبه لنفسك. تستطيع إرسال الرسائل لي بأي جديد، متى أردت، سأكون سعيدًا بفعل هذا أيضًا. هل توافق؟".

"فليكن كذلك، إلى اللقاء".

"إلى اللقاء".

***

السبت ١٧-١٢-٢٠١٦

في الطريق إلى بوشغرون - Porsgrunn

"عزيزي 101 ..

أكتب إليك هذه الرسالة وأنا في طريقي إلى بيت حماي. قد لا تصدق هذا. بعد آخر محادثة سكايب بيننا، اتصلت ببراءة لأقول لها أنني أودّ زيارتهم في المنزل، وحصلت على موعد مع أهلها. اشتريت الورود ولبست طقمًا واشتريت خاتمًا وركبت الباص نحوهم.

كان يوم السبت 03-12-2016. يسكنون في مدينة تبعد مسافة ساعتين في الباص أو القطار لجهة جنوب أوسلو. وبعد أن انتهينا من تناول العشاء، جلسنا نتحدث عن تطور الحياة منذ وصولنا قبل عامين. أخبرتهم أني بدأت العمل قبل شهرين بمهنة الترجمة، وأن هذا العمل يناسبني. بعدها فورًا قمت بطلب يد براءة للزواج. كان حولي أبوها وأمها، أخوها وأخواتها الثلاثة، وزوج أختها الكبرى. لقد صدموا من طلبي. لم نخبرهم عن علاقتنا من قبل. بادروا بسؤال براءة عن رأيها،

فقالت لهم: "نعم". فقمت فورًا بإخراج الخاتم من جيبي، ونزلت على ركبتي وفتحت غطاء العلبة. صدقني لا أعرف كيف فعلت هذا. حتى براءة نفسها لم تكن تعلم بخطتي، ثم قبّلت الخاتم وأخذت العلبة. كأننا أبطال فيلم ما، كان أهلها الجمهور والحضور. قمت بإدخال الخاتم بإصبعها الجميل، ثم قمت بتقبيل يدها. كنت أودّ فعل أكثر من ذلك، لكن معرفتي بثقافة عائلتها بهذا الخصوص، الثقافة المحافظة، ترددت. وأخيرًا فعلت. لقد وافق أهلها على الخطوبة، وحددنا تاريخ السبت الذي بعده 10-12-2016 لكتب الكتاب، وليلة العرس اليوم 17-12-2016 ستنتقل للعيش معي في أوسلو. هل تصدق هذا؟! أنا نفسي لا أصدق كيف حدث هذا، لكنني سعيد بهذا القرار، ومستعد لكل نتائجه. سأرسل لك صورًا من العرس في وقت لاحق. لن أطيل في كتابة الرسالة الآن. سأعود لأخبرك بكل جديد. سأكون سعيدًا بسماع أخبارك".

مودتي .. حسن

أوسلو .. 17-12-2016

***

محادثة سكايب .. الأحد ١٥-٠١-٢٠١٧

البارحة وصلتني رسالة من 101، كتب فيها مباركة لزواجي، مبديًا فرحًا وتعجبًا كبيرين من هذا القرار، ثم أخبرني أنه لم يستطع أخذ إجازة قبل هذه العطلة، وفي نهاية الرسالة كتب معايدة مختصرة أيضًا لعيد مولدي، موضحًا رغبته في محادثة سكايب غدًا يوم الأحد، اليوم.

كتبت له رسالة قصيرة قلت فيها أنني سعيد بحصولي على هذه الرسالة وأتطلع إلى محادثة جديدة، وأن زوجتي براءة ستسافر غدًا، عند الظهيرة، إلى المدينة التي يسكن فيها أهلها، لتقوم بإجراءات تقديم طلب تغيير المدرسة والعنوان، وأنها ستعود يوم الأربعاء، وأنه سيكون لدينا الوقت الكافي لمحادثة طويلة، إذا شاء.

عدت إلى البيت اليوم الأحد بعد الظهيرة، بعد أن أوصلت براءة إلى محطة الباصات، فوجدت رسالة من صديقي 101 على سكايب، يطلب فيها محادثتي الساعة السابعة مساءً، حيث ستكون ماريا مع أخته عند أهله، وسيكون وحيدًا في المنزل، مثلي.

يا لها من حياة زوجية مريحة. النساء في زيارات والرجال في البيوت. قمت بإعداد العشاء وتناولته، ثم قمت بتحضير فنجان قهوة سادة، وجلست أمام الحاسوب في الموعد المحدد. ما هي إلا لحظات، ورد اتصال لمكالمة سكايب من قبل 101.

***

بدأنا الحديث بالسلام والاطمئنان، كما جرت العادة، وأخبرني عن تطلعه الشديد للقاء زوجاتنا على سكايب، أو في الحقيقة، ووجه لي دعوة مباشرة لزيارتهم وقتما نشاء أنا وزوجتي، وفرح جدًا بقراري الزواج من فتاة جميلة مثلها. أبديت بدوري الفخر. زوجة جميلة وقرار صائب، ما الذي سيحتاجه المرء أكثر من ذلك؟!

ثم أخبرني عن أعماله في الفترة الأخيرة وسفره الدائم مع والده أو بدونه، وأن الأعمال تزدهر وتزداد، وأنه سيقوم بفتح شركة جديدة للإستيراد والتصدير في بلده، عن طريق أبناء عمومته وأهل زوجته ماريا، وأخبرني عن معرفته بالرسائل التي نتبادلها أنا وماريا حول الكآبة، وأنه طلب منها أن توصل إليّ سلامه عدة مرات، وأشرت له بأنها كانت تفعل هذا دومًا.

كانت ملامحه تشير إلى تحسن واضح، وتفتح في لون البشرة، وأخبرني بأنه يخفف من شرب البيرا والدخان، وأنه يفكر وماريا في الإنجاب. من ناحيتي لم أشجعه على تلك الفكرة، وأوضحت له أنني متفق مع براءة على تأجيل موضوع الأطفال خمسة سنوات، حتى نسافر حول العالم أولًا، ونشبع من الحياة قبل ذلك، وحتى ننهي دراستنا ونحصل على أعمال جيدة ودخلٍ جيد. أي حتى سنة 2021، السنة التي نحصل فيها على الجنسية النرويجية إذا ما سار كل شيء على ما يرام إلى ذاك الوقت. ثم بدأ بعد ذلك بإخباري عن الجلسة الرابعة.

***

101: "استفقتُ لأجد نفسي مرميًا في الغرفة وحولي بقعة دماء على البساط. يؤلمني أسفل ظهري جدًا وضلوعي وأكتافي وركبتي. جسدي كله يؤلمني. بدأت البكاء من تلقاء نفسي، موجوعًا، مقهورًا، مخذولًا. لا أستطيع فعل شيء سوى ذلك، بالتأكيد تعرف هذا الشعور".

نظرت حولي وقلت: "نعم أعرفه، عشته طوال شهور أربعة، أتنقل بملابسي الداخلية من منفردة إلى أخرى، وعشت تجربة الوحدة. إنها قاتلة بنظري".

101: "هي كذلك بالفعل، لا أعرف كيف يتحمل الله وحدته، هل يقضي وقته مع الملائكة أم أنه مشغول بمراقبة السجانين يجلدوننا؟

أستغفر الله العظيم. مرت ستُ وجبات بعد ذلك اليوم، وبعد تجربة السرير الخشبي. جاء دور الوجبة السابعة، وكنت مستمراً محافظًا على عد الوجبات وترتيب الأحداث فقط لأعرف كيف تجري الأمور، لعلي أصل إلى تاريخ ما، أو وقت ما.

لم يكن لدي ما أفعله سوى عد الوجبات، وتذكر الأيام التي قضيتها في بلدتي. ثلاثة شهور وثلاثة أسابيع. صورت فيها كل ما حدث من اقتحامات ومواجهات. كل بضعة أيام كانت تنشب معركة بين أهالي البلدة ومجموعات تريد السيطرة عليها، ومجموعات من الدولة تريد السيطرة عليها أيضًا. كلنا ضحية رغبات قادة أنذال.

استشهد الكثير من الأبرياء نتيجة صراعات لا ذنب لهم فيهم، ولا دخل. كان هم الجميع تحييد البلدة وما حولها عن ما يحدث. لم تكن فترة تواجدي هناك طويلة، لكنها مليئة بالتعب والقهر والحزن، وها أنا ذَا أدفع ثمن ذلك. لست حزينًا مما فعلت. هذا نتيجة قرار اتخذته. وعلي تحمل كل نتائجه يا حسن.

كنت أفكر بكلمة أمي عن قراري في البقاء، وتشجيع أختي. لماذا لم أبقَ في العاصمة بعيدًا عن كل شيء؟ هل كنت سآتي إلى هنا لو أنني بقيت في العاصمة أعمل مع الفنانين التافهين، وألتقط لهم صور؟ هل كنت سأمر بكل هذا لو أنني بقيت في العاصمة؟!

فتح باب الطعام في أسفل باب المنفردة ورموا لي قطعة لحم مسلوق مع رغيف خبز. أيعقل هذا؟ ترتيب مريب. هل يعني أنه حان موعد لقاء رابع؟ أم أنه لا علاقة لذلك بنوع الوجبة؟! أكاد أجزم بذلك.

بالفعل، ما هي إلا فترة قصيرة بين تناولي الطعام ثم خروج إلى المرحاض، فشرب ماء، فعودة إلى المنفردة ثم فتحوا الباب لأخرج. كنت أنتظر هذا. لم يعد يعني لي وجودي شيئًا، ولا قيمة لهذه الحياة. لا بد من فعل شيء ما يجبرهم على قتلي.

مشيت بجانب السجان كما كل مرة. في نفس الاتجاه، إلى اليمين من باب المنفردة. سرنا بجانب بعضنا حقيقة بدون أدنى تطرق إلى ما حدث آخر مرة، من هجومي المباغت عليه وعلى أصدقائه. يبدو أن هذا الفعل يتكرر هنا، حسب ردة الفعل هذه. بعدها انعطف بي يسارًا هذه المرة ثم طلب مني أن أنزل درجتين ثم دخلنا غرفة وأغلق

الباب خلفه، ثم سحبني من كتفي ووضعني علي كرسي. قام أحد رفاقه بربط يدي من الساعد ومن مكان وضع الساعة في يدي إلى الكرسي، ومن ثم قام بربط قدميَّ إلى الكرسي، ثم وضع شيئًا يشبه القبعة على رأسي، ثم وقف أحدهم بجانبي وسألني: هل ستفصح عن من كان يمولك؟ أم أنك ستجبرنا على إيذائك؟! .. يمكنك تجنب الألم إذا قلت لي فقط أسماءهم. سيخفف هذا عنك الكثير، صدقني".

فقلت له: "لم يكن هناك أحد. كنت أقوم بذلك من تلقاء نفسي، وأنتم تعرفون أنني ابن عائلة مكتفية. لا حاجة لي بأموال أحد. كان هدفي إيصال رسالة بلدتنا بوقف الحرب عليها. هذا ما فعلته، وبالمجان. هل لديكم أي دليل أنني استلمت مبالغ مالية من أحد؟! هل هناك أحد يقول أنه أعطاني شيئًا؟ فليأتِ إلى هنا، لن يأتي أحد بالطبع لأنه لا يوجد شيء من هذا الكلام أبدًا".

فصرخ في أذني قائلًا: "لا حاجة لأي دليل يا ولد. ستعترف بكل شيء شئت أم أبيت". ثم سكت. لحظات قليلة بعد حديثنا. قام أحدهم بوضع ملقط على حلمة صدري وملقط آخر في شفتي السفلى، وصعقني بالكهرباء.

كانت الكهرباء تسري في عروقي بشدة، وأنا أرتجف وأصرخ. لا جدوى من ذلك. أعاد الكرة ثانية، وقال: هل ستعترف؟ فحاولت هز رأسي نافيًا. لا شيء لدي لأقوله، ثم صعقني بالكهرباء مجددًا وأعادها ثلاث مرات. لم تكن المدة طويلة. لحظات في كل مرة ولحظات بين كل مرة، بينما كنت أصرخ بشدة وأرتعش طوال الوقت على الكرسي. ثم حان موعد الضرب باليدين على الوجه وعلى البطن.

قام اثنان منهم بتسديد عدة لكمات مع عدة شتائم، بينما كان قائدهم الذي يسألني، يضحك. لا أستطيع بدقة تحديد كم من الوقت كانت تستغرق الجلسة، لكنها كانت تخلف من الألم ما يحتاج لأيام. وهذا ما كانوا يفعلونه إذًا .. ضربي بشدة وتركي لأُشفى، وهذا الطعام ليبقيني حيًا قدر المستطاع. هل سيتأقلم جسدي على هذا النوع من الروتين؟ هل تشابه هذه الحياة حياة كل الذين أسمع صراخهم؟ هل يسمعون بدورهم صراخي؟

ثم أعادوني إلى غرفتي .. موجوعًا، حزينًا، لا تكوي قلبي سوى دموع أمي التي لا تعرف الآن شيئًا عني. رموني في غرفتي وغادروا".

ثم سكت 101.

كنت بدوري وهو يتحدث، ألحظ كمية الشغف في عيونه وهو يخبرني بكل ما يخبرني. غريب هذا الشيء عن المرات السابقة. تركته حتى أشعل سيجارة وشرب بلعة من زجاجة البيرا.

ثم قال: "لن تصدق إذا قلت لك أنني أمضيت فترةً طويلة على هذا البرنامج. الخيارة وحبة البطاطا المسلوقة ونخذ الفروج أو صدره، وقطع اللحم المسلوق والخبز. نفس الأغاني، نفس الأصوات. نفس الترتيب الذي تحدث فيه الأشياء وبنفس التواقيت، بل وأقسم لك نفس الأسئلة من طرفهم ونفس الأجوبة من طرفي.

حتى جلسات التعذيب التي أخبرتك عنها. الوضع بماء بارد 24 مرة، محاولات خنقي بالماء 24، ثم 24 مرة تعذيب على السرير الخشبي، وأخيرًا 24 مرة مكهربًا في الكرسي الكهربائي، وكل ما تخلل تلك الجلسات من لكمات وشتائم، وإهانات ... ترتيب مذهل! كيف لهم تحمل ذلك؟ كيف لي تحمله أصلًا؟!

على هذه الحال بقيتُ مدة طويلة، قدرتها فيما بعد، يوم خروجي، بسنتين تقريبًا. أكلت فيها نفس الأكل وشربت من نفس المكان، وقضيت حاجتي فيه، وتعذبت تعذيبًا كثيرًا بشكل متكرر ومرتب.

لم يحدث أي أدنى خرق لهذا الترتيب. سوى تلك المرة اليتيمة التي انتفضت فيها ... تخيل؟".

"أستطيع تخيل ذاك العناد الذي يملكونه، وتلك الإرادة التي نملكها نحن، وكذلك أفهم معنى هكذا حياة".

"كنت أقرب إلى الجنون يا رجل".

"صدقني أنني دخلت المستشفى جراء جنوني في أحد السجون التي دخلتها قبل خروجي".

"لقد كنت أفكر طوال الوقت بنهاية هذا البرنامج، كيف لهم وضع مثل هذه الخطط بوقت تعيش البلاد ما تعيشه. كنت أسمع عن وحشية السجون، والآن أعيشها. كنت أفكر كيف هي الحياة في الخارج وأضع الخطط لما سأفعله عندما أخرج. وأحيانًا أخرى أحاول ربط قميصي حول عنقي لأشنق نفسي، وسرعان ما أتوقف لسبب ما. وهو حلمي بلقاء أمي وأختي ورفاقي. ماريا لم تغب يومًا عن خيالي، كنت أحلم بلحظة لقائها".

"وهي كذلك، أخبرتني عن الفترة التي عانتها في غيابك، وبكت أيضًا عندما أخبرتني كم كانت لحاجتك بالقرب منها. لكنها كانت مؤمنة

وواثقة أنك ستعود، وأن الكثير من أبناء بلادكم تقدموا لخطبتها وكانت ترفض، يا له من حب جميل!".

101: "ماريا، أهٍ منها ... أمضيت وقتًا طويلًا وحيدًا، ثم نقلوني من هذه الغرفة إلى مكان آخر أكلت فيه البندورة والتفاح واللحم والفروج والخبز، ونوعين تعذيب، 24 مرة في الدولاب مع السياط واللكمات، و24 مرة معلقًا في الهواء ويتم جلدي على كامل جسدي، ثم نقلوني إلى مكان ثالث، أكلت فيه البرغل والحمص لمدة طويلة. التعذيب كان مغايرًا لكل ما سبق. كانوا يضعونني في تابوت لمدة طويلة. صندوق مغلق، يقطر الماء فوقه. وضعوني في التابوت 24 مرة، ثم كانوا يمثلون عملية قتلي بين الحين والآخر، يضعونني أرضًا ويجتمعون حولي ثم يلقموت بواريدهم لكنهم لا يطلقون نحوي. كانوا يضربونني فيها وأحيانًا يطلقون النار في الهواء حولنا. كل الأماكن التي تنقلت فيها كانت متشابهة في الحجم والشكل. فأسمع أصواتًا جديدة وأعتاد أشياء جديدة، ثم أقابل نفس الأسئلة في كل مرة تحقيق ... هل يمكنك تخيل هذا؟!

ثم جاء يوم جديد. فُتح الباب علي، ورموا لي بنطالًا وقميصًا بلون أزرق وطلبوا مني ارتدائهما والوقوف مقابل الحائط ويداي إلى خلف ظهري .. لكن ..... ألم تتعب؟".

"ليس بعد، لكن يمكننا التوقف عند هذا الحد لو أردت".

"سيكون من الأفضل فعل ذلك، لقد بقي مرحلتان أساسيتان وننتهي من تفاصيل المدة كلها".

"أصحيح هذا؟ كم أنت جبار".

"نعم، ما رأيك لو أننا نقسم بقية ما سأخبرك به على أربع جلسات مثلًا في شهر مارس مرة، وشهر يوليو، وشهر سبتمبر، وأخيرًا كانون الأول. منتصف كل شهر، هكذا نكون قد أنهينا المهمة قبل انتهاء العام. لدي الكثير لفعله أيضًا، وأنت الآن متزوج ولديك همومك الخاصة، أخبرني قبل أن ننهي الاتصال، كيف هي الحياة الزوجية؟".

"سيكون تقسيمًا رائعًا ويناسبني جدًا، ولا مانع عندي من رسائل قصيرة لنطمئن عنكم، ومحادثة جانبية مع الزوجات. أعيش حياة زوجية مريحة مع زوجتي. مليئة بالتفاهم والحب. لقد عوضتني عن كل ما سبق. وجدت الاستقرار نوعًا ما. تدعمني هي بدورها لكي

أنتهي من ديوان لكل أنثى عما قريب. ينشر في مصر وأحصل على 100 نسخة هنا. عقد جيد".

"ما رأيك لو أنني أساهم بذلك بمبلغ معين؟ سأكون سعيدًا لو سمحت لي بدفع تكاليف عملك الأول. اعتبرها دعم مني أيضًا، الحمد لله الحال هنا جيد. ابعث لي عندما تحتاج الفواتير وأن سأتكفل بالباقي".

"أصحيح هذا؟ هل أعتبر معنى كلامك أن لدي صديق غني قد أعتمد عليه يومًا ما؟".

"ولِمَ لا يا صديقي. أنت الآن بمثابة أخ وأعز، لن يكون للمال دورًا هامًا في علاقة الأهل. اعتبر المبلغ هدية زواجك حتى يخف عليك. نحن العرب هكذا. نحتاج اللف والدوران لنقبل".

"سأوافق وبكل سرور. ستدفع كل شيء ولك في المقابل نسخة موقعة باسمك وسأكون ممتنًا".

"حسنًا، على الذهاب الآن. أوصل سلامي لزوجتك ... إلى اللقاء صديقي".

***

محادثة سكايب .. الأحد ١٩-٠٣-٢٠١٨

منذ انتهاء المحادثة الأخيرة مع 101وهناك شيء ما في داخلي غير مكتمل يوجعني. هل يوجع الاستماع لمثل هذه القصص المليئة بالوحشية؟ أم أنها الصدمة التي أعيشها من همجية البشر؟! كيف لنا أن نعذب بعضنا بهذا الشكل غير الإنساني؟ لماذا خلق الله الأشرار؟ ألن يكون العالم مكانًا أفضل بدون الأشرار والقتلة والحروب؟ لكن كيف سنعرف من هم الجيدين لولا وجود السيئين حولنا؟

بكل تأكيد لكل مجتمع عيوبه وحسناته، وفيه من الأشرار ما يكفيه وفيه من الأخيار ما يكفيه، ولكن لماذا يفعل الإنسان هذا؟ هل هي السلطة؟ هل هو حب المال والعظمة؟!

حاولت البحث في الإنترنت عن إجابات شافية لأفهم، لكنها لم تكن أكثر من دراسات نتج عنها أفكار مختلفة، لا تعطي الجواب الحقيقي الذي يمكن له أن يهدأ النار بداخلي.

لماذا تعيش بلادنا العربية هذا الحزن وهذا الوجع؟ لماذا لا تعيش شعوبنا مثل شعوب البلاد الديمقراطية التي تهتم بالإنسان وحقوقه؟ ولكن ها هي تلك البلاد المتحضرة تترك بلدي منذ سنوات تحت الحرب ولا توقفها. يصدر العالم بيانات لا توقف إجرام القتلة بحق الشعب الذي يريد الحرية ... كيف للمجتمع الذي تعرض لكل ما تعرض له، أن يبدأ صفحة جديدة مليئة بالتسامح والتفاهم؟!

كيف ومتى تنتهي هذه الحروب يا الله؟ هل هي حروب مقدسة فعلًا بين هذه الشعوب؟ أوليس الذي يتقاتلون من أجله خلقهم جميعًا؟ هل يحب الله رؤية دماء خلقه تراق في سبيله؟! ... أيعاقب الله المجتمعات بأن يسمح للحروب أن تدمرها؟ لكن ما ذنب الأطفال؟!!

***

في موعد المحادثة المحدد، جلست في المطبخ مهيئًا نفسي لما سيحكيه لي 101. ها هو يتصل. نطمئن كل مرة على بعضنا بداية كل حديث، ونسأل كيف تسير الأمور. نبدو بأطيب حال في بداية المحادثة، وفي منتصفها نشعر بتغير طفيف بملامح وجهينا، ثم تنتهي المحادثة بعيون متعبة وقلب يدق بسرعة.

101: "ثم جاء اليوم الموعود ... فتحوا عليَّ باب المنفردة التي كنت فيها وصرخ أحدهم "محكمة" ثم رمى لي بنطالًا وقميصًا بلون أزرق مكتوب على ظهره رقم 101. كانوا موضوعين في كيس بلاستيكي، ثم طلب السجان مني أن أجهز خلال العد لعشرة. بالفعل فعلت ذلك. لطالما كنت عاريًا، ثم طُلِب مني أن أجلس جاثيًا، وأدير وجهي نحو الحائط في صدر الغرفة، ويداي إلى الخلف. فعلت ذلك أيضًا دون أن أسأل ما الذي يحدث أو لماذا. كنت معتاد على وضع الطماش وأن أكبل وأقتاد إلى التحقيق، ولكن لماذا الملابس؟ كنت قد اعتدت البقاء عاريًا.

بعد أن قام بوضع طماش على عيوني وكبل يديَّ سحبني إلى خارج الغرفة، ومن ثم مشى وهو يجرني قرابة عشرين متر، ومن ثم صعدنا درجات قمت بعدِّها.

كانت خمسة وثلاثين درجة قمت بعدها ومقسمة على درجين. وبعدها سمعت صوت فتح أقفال، وصوت صرير فتح باب، ومن ثم وصلنا إلى منطقة يبدو أنها خارج المكان الذي كنّا فيه، نسبة إلى الهواء اللطيف الذي لامس وجهي - لقد مضى وقت طويل على آخر نسمة

لاعبت وجهي وشعري - والحرارة المختلفة عن القبو الذي أخرجونا منه. وقف السجان وأوقفني معه، ثم سمعت صوت تشغيل محرك سيارة. هذا الصوت أعرفه. لقد عرفت الآن ما الأمر. سيتم ترحيلي إلى مكان آخر. لقد عشت هذه اللحظات من قبل بطريقة مختلفة. وبدون ملابس. طلب السجان من شخص آخر أن يقوم برفعنا إلى داخل السيارة ومن ثم أن يزيل الطماش عن عيوني فقط، وقال له: "انزع الطماش عن عيون السجين " 101" حالما يكون داخل السيارة، وأبقِ على طماش الآخرين، ولا تفك وثاق أحد منهم بما فيهم " 101".

بعد أن رفعونا إلى السيارة وأجلسوني، قال لي: "ابقَ هكذا حتى تسير السيارة"، ومن ثم رفع الطماش عن عيوني، وأدار وجهي نحو زاوية الصندوق الخلفي للسيارة. عرفت الآن أنه أنا صاحب الرقم " 101" سموني باسم المنفردة ... ورحل.

مشت السيارة بنا مسافة لا بأس بها وأنا لا أقوى على الحراك. نظرت بطرف عيني ولمحت أربعة أشخاص مطمشي العيون، ومكبلة أياديهم إلى الخلف مثلي.

جميعهم يرتدون قمصان وكلاسين داخلية بيضاء مائلة للصفار لشدة قدمها. بعد أن انطلقت بنا السيارة بقليل، سأل أحدهم: "من منا 101؟". لم يكن من السهل علي القول أنه أنا، فبقيت صامتاً. ثم أعاد السؤال: "من هو 101، ولماذا فكوا الطماش عن عينيك؟". فقلت لهم بدون مبالاة "أنا 101، ولا أعرف لماذا فكوا الطماش عن عيني، ولكنني مكبل اليدين إلى الخلف مثل الجميع هنا". فسأل آخر: "كم واحد هنا؟ كونك أنت الوحيد الذي يرى بيننا". فقلت: "أربعة رجال وأنا الخامس". ثم سأل آخر: "هل يعرف أحدكم إلى أين يأخذوننا هذه المرة؟". أجابه ثالث: "بالتأكيد نحو نهايتنا المحتومة".

فقال له الشخص الأول: "وتركوا عيونه مفتوحة حتى يرى موتنا ويعترف بفعلته، يا لها من حبكة بوليسية!".

وفجأة تدخل رابعهم: "هلا تكفون عن التكلم قبل أن يسمعنا الحراس بجانب الباب، فيدخلوا وينهالوا بالضرب علينا. كلنا سنموت يومًا ما". وسكت. وسكتنا وراءه.

***

وفجأة بدأ الرجل الذي قال "نحو نهايتنا" بالغناء. كان يغني أغنية لفيروز: "يا جبل البعيد خلفك حبايبنا". للحظة شعرت بحاجة ماسة للبكاء، لكني فضلت عدم فعل ذلك، وبقيت أدندن بصوت يكاد لا يسمعه غيري، بينما قال له ثانيهم: "لديك صوت جميل". وسكت.

فقال الثالث: "هل يجب أن نعرف أسماء بعض؟". ولم يحصل على جواب من أحد. فجاوب نفسه الجواب: "على ما يبدو لا، إذن ابقوا كالمغفلين هنا، لا يحظى عادةً من يخاف باحترامي، لكننا في وضع يبرر الخوف للبعض، اسمي ياسر ولست أخشى ذكره. لقد مررتُ بما هو أسوء من هذا بكثير". وسكت.

أجابه رابعهم الذي ملّ من تكرار طلبه الدائم بالصمت: "احتفظ ببطولاتك لنفسك، أيها الوغد، ستندم يومًا ما على رجولتك المفرطة". وسند رأسه على جانب السيارة خلف رأسه، وساد الصمت مجددًا.

كنت أنظر أثناء صمتنا المتقطع من فتحة صغيرة جدًا، مخصصة ربما لبرغي قد سقط أثناء القيادة من شدة المطبات ... كان تقريبًا في منتصف السيارة.

نحن الآن داخل سيارة نقل سجناء تسير بنا إلى مكان لا يعرفه أحد منا. نظرت إلى الشمس التي لم أرَها منذ سنوات بالتأكيد. كانت ما تزال جميلة ودافئة كما تركتها، والطريق مليء بواحات ماء خلَّفها على ما يبدو المطر على جوانبه. إنه بالتأكيد فصل الشتاء أو الربيع. قاطع شرودي أحد الرجال قائلًا: "هل ترى شيئًا ما غيرنا في هذه السيارة الحقيرة؟". عرفت أنه يوجِّه السؤال لي، لأنني الوحيد هنا الذي يتمتع بنعمة البصر ... "لا، فقط نحن" أجبته باقتضاب.

فقال: "ولا أدوات صعق الكهرباء؟".

"ولا هذه أيضًا". فقال: "الحمد لله". وعاد الصمت ليخيم على المكان الذي بدأت حرارته ترتفع، لأن السيارة كانت من الحديد بالكامل، والشمس عمودية فوقها.

سأل أحدهم: "هل يعرف أي منكم أي الأيام نحن أو أي الشهور؟ لقد توقفت عن العد بعد أن نقلوني من المهجع الجماعي الذي كانت تضربه زاوية أشعة شمس خفيفة كل صباح. كنت أعتمد على ذلك في عد الأيام. وصلت إلى ألف يوم وتوقف العد منذ وقتها".

أجابه الرابع ذو العصبية: "لا نريد معرفة ذلك وما حاجتنا إلى ذلك، إنه آخر يوم في حياتنا، لم يكن يجب أن تأتي معنا".

وسكتنا مجددًا. لم أتدخل في حديث ما، رغم أنه أثار رغبة في داخلي لمعرفة أي الأيام هو يوم نهايتنا الذي لا يمل رفاقي من الحديث عنه. لقد تذكرت الآن متى تم اعتقالي. حدث ذلك في أواخر شهر آذار سنة 2011. كنت أذكر اليوم مقطع الفيديو الذي صورته قبل الاعتقال بدقائق. يا هل ترى كم مضى على ذاك اليوم؟

فسألت صاحب الأيام الألف: "هل عددت فعلًا ألف يوم؟ هل تذكر يومك الأول؟".

"في ربيع 2012، لا أذكر منذ متى بالتحديد. توقفت عن العد عندما نقلوني من ذلك المهجع. لم أعد أرى الشمس ولا البشر. وضعوني بمنفردة ما في باطن الأرض، ولم أعرف سوى السجانين الذين كانوا يرمون لي الطعام مرتين يوميًا من شباك صغير أسفل باب المنفردة".

فقلت: "وأنا كنت في المنفردة أيضًا، ولها باب صغير في أسفلها. ألقوا القبض علي في مارس 2011. يبدو أنني تخطيت ألف يوم أيضًا".

سكت بعدها وساد الصمت مجددًا. لعل لقاؤهم خفف عني صعوبة اللقاء ببشر بعد كل هذا الغياب عنهم.

بدأت السيارة بتخفيف سرعتها. هناك على يسار الطريق، يبدو لي بصورة غير واضحة تمامًا، من ثقب البرغي، طريق مشجر بالدالية وشجر صنوبر. فقاطع شرودي بالمنظر الذي حُرمت منه أحد رفاق الطريق اللعين هذا، حينما قال بصوت مستهزئ: "يبدو أننا نقترب من نهاية طريقنا". فصرخ الرجل الذي كان مستاءً من حديثنا وخائفًا من الحراس: "اسكت قبل أن تودي أحاديثك التافهة بنا إلى الهاوية التي لا مفر منها معكم".

توقفت السيارة بعد أن كانت تبطئ من سرعتها. نظرت من الفتحة مجددًا فرأيت بوابة حديدية تفتح لجهة اليمين، والسيارة دخلت عبر الباب إلى ساحة رملية لا شيء أخضر فيها. مليئة بمعدات التمرين وبناء الأجسام، وفيها آليات عسكرية منها المتفحم، ومنها المركون عشوائيًا. توقفت السيارة في الفناء أمام مبنى يتقدمه درج يؤدي في نهايته العلوية إلى المدخل الأساسي للمبنى".

وسكت 101 ليشعل سيجارة، ثم قال: "سأذهب مع ماريا لرؤية أصدقائنا، مضى وقت طويل على آخر لقاء معهم، سنكمل في موعدنا القادم".

"أتمنى لكم سهرة سعيدة، لن يتعبني تسجيل ما تحدثنا به اليوم".

"هكذا أفضل. لا نريد لأي منا أن يتعبه هذا. أوصل سلامي لبراءة".

"كما أفعل كل مرة، وأنت أيضًا، إلى اللقاء".

"إلى اللقاء".

***

محادثة سكايب .. الأحد ١٦-٠٧-٢٠١٧

وصلني البارحة مثل كل مرة رسالة من 101 يطلب مني فيها تحضير نفسي لمحادثة الغد يوم الأحد. كتب لي عن إعجابه ببعض الصور التي شاركتها في فيسبوك من إسبانيا، في زيارتي مع براءة إلى جزيرة بالما قبل أسابيع، ثم جاوبته أني سأكون في انتظاره غدًا مع براءة. لعلها تلتقي بماريا. في الموعد المحدد مساء يوم الأحد الساعة السادسة مساءً، وردني اتصال سكايب من 101. كنت أنتظر ذلك برفقة براءة، بينما كان هو وماريا في الطرف المقابل.

بداية الحديث كانت للنساء. تعرَّفن ببعضهن، وأبدين إعجابهن ببعضهن، ومن ثم تحدثن عن دراستهن، وعن أحلامهن. بينما كنا ندخن أنا و101، ثم تبادلن حسابات فيسبوك، واتفقن على التواصل الدائم، وتكملة حديثهن الأول الذي لن ينتهي، ليفسحن المجال لي أنا و101 لنتحدث عن أمورنا الخاصة، فحكيت له عن رحلتنا وكيف مضت الأيام هناك، وأخبرته عن مدى إعجابي بالثقافة الإسبانية.

وشرح لي بدوره عن حبه لإسبانيا وعمله فيها مع أصدقاء والده، وعن خطته لشراء بيت هناك في إشبيلية، وقدم لي عرضًا بزيارته عند فعله ذلك. ثم باغتني بالسؤال عن ديواني الأول (لكل أنثى)، الذي صدر في مصر، وأبدى إعجابه بالغلاف، وعتب علي لماذا لم أخبره بذلك، رغم اتفاقنا على مساهمته بتمويل العمل، وأخبرته أني حصلت على مساعدة من صديق لي هنا وعرضًا جيدًا من دار النشر فلم أستطع التأخر عنهما، واعتذرت عن عدم إخباره بذلك نظرًا لمعرفتي بانشغاله الدائم، وكذلك كنت أنا مشغولًا جدًا بجمع القصائد وترتيبها والتواصل مع دار النشر وانتظار وصول الديوان إلى النرويج. ثم وعدته بأنني سأرسل له نسخة موقعة قريبًا، ففرح لهذا وسامحني على ما فعلت، ثم عاد ليكمل حديثه.

101: "لقد قضيت سنوات في أماكن مختلفة. في كل مرة أُنقل فيها كنت أعيش التجربة ذاتها، لكن هذه المرة مختلفة بكل تفاصيلها.

صعد أربعة رجال ليُنزل كل واحد منهم رجلًا من رفاق الطريق الأربعة، وطلب مني آخرهم بعد أن أوقفني أن أتبعه وحيدًا، ونزلنا تباعًا من السيارة ... كنت آخر النازلين.

الشمس تتوسط السماء بهدوء خفيف، ولا حرارة قوية، وبدا لي صوت الأذان من بعيد، وسرب حمام يطير فوق المكان. كانت المرة الأولى التي أقف فيها على قدميَّ تحت السماء منذ زمن. نزلت على ركبتي، ورفعت رأسي إلى السماء لتضرب الشمس وجهي بكل ما لديها من حنان ... وقلت: "يا رب".

وصل إليّ حارس بلباس مدني رياضي، وسحبني من قميصي من جهة الخلف فوقفت على قدمي، فسألني: "مشتاق للشمس يا مدلل؟". قلت له: "آسف" ... وسكتت.

تم إدخالي إلى المبنى بطريقة تختلف عن طريقة إدخال الرفاق الأربعة الذين تم إنزالهم معي. تم ضربهم وركلهم أمامي، ورافق ذلك سيل اتهامات بالعمالة والخيانة، وشتائم مهينة لشرفم وعرضهم. دخلنا إلى ساحته الداخلية المليئة بالحراس من على جانبي الساحة، وكأنهم في طريقهم إلى الحرب. بعضهم كان يضع قناعًا يخفي وجهه ويضع نظارة شمسية ليخفي عينيه. مختلفون في الأحجام والأطوال، متشابهون في اللباس والسلاح الكثير الذي يطوق أجسامهم وبدلاتهم المموهة. رأيت مخازن الرصاص على صدورهم في الجعب، وعلى أفخاذهم فوق

البناطيل سكاكين طويلة تلمع لشدة حدتها. نظرة سريعة لمدة ثوان عليهم - بدون أن يلمح أحد ذلك - كانت كافية لرؤية ذلك.

تم اقتياد رفاق الطريق إلى غرفة إلى جهة اليمين من الباب الرئيسي الذي دخلنا منه، وأنا تم إدخالي إلى غرفة أخرى من جهة اليسار كتب على بابها (الديوان). وضع لي الطماشة على عيوني قبل قرع الباب وطلب إذن الدخول.

***

فور دخولنا فك أحد الحراس وثاقي من الخلف، وطلب مني أن أقوم بفتح فمي ومد لساني. فكرت للحظة أنه سيتم قطع لساني هنا، وأنها آخر لحظات أعيشها. لماذا وضعوا طماشًا وفكوا القيود؟!

لم يطلب مني أحد إخراج لساني من فمي قبل اليوم، بهذه الطريقة. كانت الطماشة فوق عيوني قليلة الإحكام على عيوني مما سمح لي عد ثلاثة أحذية مختلفة حولي. كان هناك أكثر من ثلاثة أصوات، لكنهم أبعد من مجال النظر الذي أتاحته الطماشة. وبالفعل مددتُ لساني، ومن ثم قام أحدهم برفع الطماشة عن عيني للحظة أراد فيها أن أرى وجهه بوضوح وهو يقوم بضرب لساني بشحاطة كان يرتديها. ضرب

لساني ضربة قوية قبل أن أسحبه مجددًا خشية أن يضربني مجددًا فيقطع لساني. فصرخت عاليًا من الألم، وقال لي بلهجة تحدٍ واضحة: "خليني أسمع إنك رجعت تصور وتكتب، وقتها رح جيب أمك وفرجيك بعينك شو بعمل فيها". نظر بفخر نحو أصدقائه ثم أردف: "نزلوه ها الحيوان لتحت، ما بيبقى لوقت طويل عندنا".

وبعدها بلحظات، وقبل أن يعيدوا الطماش إلى عيوني، وبينما كان الحراس يقومون باستقبالي، طلب أحدهم مني أن أتفحص أغراضي إن كانت كلها موجودة معي. لم أصدق ما رأته عيناي ... رغم أني نسيت ما كان بحوزتي يوم ألقوا القبض علي، ومكتوب بأعلى الورقة "سري للغاية، بتاريخ الإثنين 2015/03/23".

"نعم سيدي، كل أغراضي هنا". قلتُ ذلك بشكل عفوي بحت، وأنا أنظر إلى التاريخ. أفكر في داخلي 2015؟ قلت نعم، حتى لو كان نصفها، حتى لو لم أجد شيئًا، سأقول: "نعم كلها موجودة" ... أربع سنوات مضت في السجن!!

ومن ثم أمرني أن أقوم بأداء بصمة إصبع فوق الورقة التي كتب عليها ممتلكاتي. ففعلت ذلك بإبهامي، وبكل هدوء استطعت الوصول إليه.

ثم أعاد أحدهم من الخلف الطماش إلى عيوني ووقفت أنتظر ثم قال أحدهم:"هل تريد نقودك معك؟". جاوبته على الفور: "ما حاجتي بها في السجن؟". فقال بلهجة حزينة:"هنا يمكنك استخدام النقود لتشتري بعض الطعام كي لا تموت. هل تريدهم أم لا؟".

"بلى يا سيدي أريدها، شكرًا". جاوبته وسكتت.

"خذ هذه نقودك"، وقام بوضعها بجيبي دون أن أرى كم وضع لي. ونظر مباشرة في عيوني كأنه يتأسف لما يحدث، ثم مشى بي نحو الباب الذي دخلنا منه.

الباب الذي دخلته مع زميله على بعد عدة خطوات، وكانت هناك اللطمة القاسية. كان على مقربة من الباب مرآة على الحائط. اقتربنا منها، وما أن وصلنا أمامها خطر لي أن أمثل أني أسعل لأقف أمامها وأرى كيف أبدو الآن بعد كل هذه السنوات. ليتني ما فعلت!

كانت لحيتي طويلة وشعري طويل وكثيف جدًا. أربع سنوات بدون حلاقة، وعيناي غائرة، وعلامات جروح قديمة فوق عيوني.

فهم السجان لماذا قمت بالسعال فتركني لحظتين لأرى نفسي، ثم وضع الطماش على عيوني، ليجرني مطمشًا نحو الباب إلى مكان لم أعرفه.

وفجأة تركني واقفًا وحيدًا ومضى. فصرخ أحدهم من الخلف ضاحكًا وركلني بقدمه على بطني لأنزل الدرج بسرعة نحو القبو، وما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسي ممددًا على الأرض أسفل الدرج أصرخ موجوعًا، وأترقب ما سيحدث. نزل هو الدرج، أزال طماش الجلد، الذي يشبه طماش الحصان عن عيوني، وتركني ممددًا، وبعدها فتح بابًا حديديًا كبيرًا يتوسطه شباك صغير مقطع إلى أربع مثلثات صغيرة. لونه رمادي كتب عليه "تحقيق6".

***

ظهر لي فور فتح الباب مجموعة كبيرة من الرجال يرتدون ملابس داخلية فقط. تستند ظهورهم إلى الحائط الذي بدا من طرف الباب، وأخفى الطرف المقابل للرجال. عاد ليجرني ورماني عبر الباب بين وعلى أقدام الرجال خلف الباب.

وقفتُ بعد أن أُغلق الباب مستندًا إليه ورجعت للوراء جالسًا لأستند عليه بظهري، ثم سحبت ركبي نحو جسدي وطوقتها بيديَّ. تجوَّلت بنظري في وجوه الرجال هنا. يجلسون في غرفة تصل في نهايتها إلى غرفة، وفي منتصفها من جهة اليسار باب يؤدي إلى غرفة أخرى.

أنا الذي عاش أربع سنوات بدون أن أشترك بغرفة مع أحد، أرى الآن كل هؤلاء دفعة واحدة!! البعض ينظر نحوي نظرة شفقة، وآخرون لم يهمهم أمر دخولي. لم يقترب مني أحد. كان واضحًا علي شعور الخوف والارتباك والارتياب. شهقت شهقة طويلة خائفة بدون أن تكون مسموعة لمن حولي، ثم وقفت ببطء مستندًا إلى الباب، وحاولت السير في الغرفة، أدوس بين أقدام الناس الذين عادوا إلى وضعية نومهم بعد أن أُغلق الباب، حيث عِلموا أن الأمر انتهى عند هذا الحد، على الأقل، الآن.

الكل ينظر نحوي مستغربًا لباسي الأزرق، والرقم الذي كُتب على القميص. كادت أن تأكلني العيون. كانوا يرتدون الأبيض ويتشحون بالسواد. عيون بعضهم جاحظة وعظام القفص الصدري تكاد تكون خارجة من مكانها لشدة وضوحها رغم قلة الضوء في المكان. دققت النظر للحظة في أجسام البعض في الممر كأنها مرسومة بالدوائر لكثرة الحبوب والبقع الملونة على الأجساد. منهم من لايزال دمه على وجهه أو على عضو ما من أعضاء جسده. الكل متعب وخائف بنفس الوقت.

وفجأة صدر صوت صراخ عالٍ من مكان ما لا أعرفه، فوقفت مشدوهًا بمكاني. نهض بعض النيام لشدة الصوت. عاد الصوت مجددًا متكررًا وكأنه يتم تعذيب أحد ما في مكان ما هنا. عاد كل شخص لمكانه. همسات تصل إلى مسمعي، وأنا أتقدم في الممر بين الأقدام. كانت من أطول اللحظات هنا. فجأة وقف شخص من الغرفة التي كنت سأتجه نحوها وخرج نحو الباب واتجه نحوي قائلًا: "حمد لله على السلامة". لم أفهم عن أي سلامة يتحدث ووجوهنا كلها لا تدل على سلامة شيء منا.

"الله يسلمك" ... قلت له باستغراب وأنا ألتفت حولي.

"أأنت عسكري أم مدني؟!" سألني بلهجة خافتة وهو ينظر حوله، كأنه لا يريد أن يسمعنا أحد.

"أنا مدني" أجبته. بينما كنت أحاول البحث بعيوني عن مكان قضاء الحاجات التي تأتي في غير أوقاتها ... عن المرحاض أتحدث.

"هل تبحث عن شيء؟" سألني.

"هل من حمام هنا؟" قلت له بتهذيب الأطفال: "نعم!" فأنا لا أعرف مزاجه بعد.

"نعم هناك في الزاوية" وأشار لي بالدخول إلى الغرفة التي كانت على يساري وأنا في طريقي إلى الداخل. دخلت الغرفة. مساحتها كانت قريبة من عشرين مترًا. الحوائط ارتفاعها أربعة أمتار تقريبًا وفي نهايتها عند السقف توجد فتحات التهوية، يدخل منها الضوء والهواء من خلال الشبابيك التي خلفها. علمتُ فيما بعد أنه تم إغلاقها من الخارج بأكياس رملية تمنع وصول الصوت واضحًا لمن هم تحت، وفي زاويتها بابان، فهمت أنهما أبواب المراحيض. اتجهت إليها محاولًا تجنب الوطء على أقدامهم - لا سمح الله.

في طريقي نحو المرحاض تفحصت عن قرب رغم الضوء الخافت وجوه الناس الموجودة هنا. وجوه متعبة يبدو أنها لم ترَ الشمس منذ وقت طويل، مثلي. متشابهة أجسامهم مع أجسام من كانوا في الممر، وآثار تعذيب وحشي تبدو واضحة عليهم. انقسم الرفاق إلى مجموعات صغيرة. سمعت فور مروري بجانب إحداها، والتي أخذت موقعًا لها بالقرب من المرحاض وتحت الضوء الوحيد في هذه الغرفة. الضوء لم يكن وسط الغرفة بل أقرب للحمام، والغاية منه على ما يبدو أن يضيء فقط هذه المساحة ... المرحاض ومنتصف الغرفة القريب منه.

سمعتهم يتحدثون عن أمنيات بالخروج من هنا. كانوا يتحدثون بصوت مرتفع قليلًا، لكنهم عندما تأكدوا أنهم لا يعرفونني أخفضوا من نبرة حديثهم.

***

مشيت وصولًا إلى الفسحة التي تبلغ بالكاد ثلاثة أمتار أمام المرحاض. المكان هنا أبرد وألطف رائحة من هناك قرب الباب رغم أنه بالقرب من المرحاض. فتحات الشفاطات التي كانت في أعلى المراحيض تبعث بتيار هوائي يحوم حول المكان القريب منه فيغير الهواء ودرجة حرارته نسبيًا، والمكان بدا أوضح فأوضح كلما اقتربت من المرحاض.

دخلت المرحاض ولم أستطع فعل أي شيء، رغم حاجتي الملحة لذلك. يبدو أنني كنت أبحث عن مكان أكون فيه وحيدًا مجددًا، ولو لمجرد لحظات ... فأنا خائف، أحتاج بعض الوقت وحيدًا.

انهمرت بالبكاء. كنت أقرب إلى الاختناق من أي شيء آخر. كل شيء لا يوحي بأي وضع جيد هنا. حاولت كثيرًا أن أجمع دموعي،

وأن أحاول التبول على الأقل. فتحت الماء حتى يجري ويخفف من تعاستي. اشتقت أن أرى ماءً يجري.

ضربت وجهي بالماء لمرات عديدة. غسلت وجهي لأخفي آثار الدموع على لحيتي الطويلة. فعلت ذلك كله بأقل من دقيقة كادت أن تكون الأطول في التاريخ. بدأ أحدهم بقرع الباب علي: "هيا يا صديقي".

"أجل. نعم، سأخرج حالًا" جاوبته وأنا أرفع بنطالي وأهِمُ بالوقوف.

الحوائط الثلاثة مليئة بالكتابات .. أسماء، ذكريات، ودعوات. حدثت الشخص الذي كان ينتظرني خارجًا: "بدأت أشك أن كل سكان الأرض مروا من هنا، لكثرة الكلمات".

فضحك بدوره وقال: "لديك حس دعابة". خرجتُ وأنا أربط الحزام خارج الغرفة كي لا أتأخر على الرجل الذي لا أعرفه ولا يعرفني من قبل.

"نعيمًا"، قال لي متهكمًا ثم أضاف: "انتظرني هنا، هناك شيء سأقوله لك"، ثم دخل إلى المرحاض.

في تلك اللحظة لم أستطع تحريك لساني لأقول له أي شيء، عما إذا كنت سأنتظر أم لا، أو أي شيء، لم أقل شيئًا. بقيت واقفًا أنتظر

خروجه العظيم. كان يبدو عليه أنه أكبر مني سنًا. يبدو عليه الهدوء والطيبة ... هكذا هو بدا لي.

لديه ساعة جلدية في يده اليسرى، وطوق فضي حول عنقه.

بدأ هو بالغناء من داخل المرحاض بصوت لم يسمعه سوى من كانوا جالسين في الفسحة أمام المرحاض تحت الضوء. كان صوته حسناً لا بأس به صراحة، لكني كنت أقرب إلى التجمد من شدة خوفي أن يأتي الحراس فيفعلوا بنا ما يشاؤون، أو هكذا كنت أظن. خرج من المرحاض، واتجه نحوي وهو يمسح يده بقميصه الداخلي الأصفر نوعًا ما، ثم قال لي بلهجة تكاد تكون أقرب إلى لهجة تحقيق من التعارف: "من أين أنت؟". فقلت: "من وسط البلاد". جاوبته وأنا ألتف معه باتجاه الزاوية المقابلة للمرحاض الثاني القريب من نهاية الغرفة.

"تعال، اجلس معنا" .. قال لي وهو يجلس مستندًا إلى الحائط.

"شكرًا لك"، قلت له وأنا أفعل مثله. سألته: "من أين أنت؟". "أنا من العاصمة" قال، وسألني: "ما اسمك؟" سألني بكل حذر.

"اسمي 101، وأنت؟"، سألته بهدوء يشبه هدوء المكان، بلهجة شبه مرتاحة. بدا على وجهه ملامح استغراب وحاول أن يتقبل الأمور كما

هي، ونظر حوله ليحول الحديث عنده قائلًا: "يحدث هذا أحيانًا، ولكن لا يدوم. الألم مؤقت والفخر دائم، اسمي جورج" جاوبني على الفور، ثم سألني: "هل هناك مشكلة في ذلك؟".

لم أفهم طبيعة السؤال كونه كان أقرب إلى الاستهزاء، فطلبت منه التوضيح: "هل لك أن توضح؟ لم أفهم ما قصدك بمشكلة! بالطبع ليس لدي مشكلة باسمك. إننا هنا في مكان واحد، مقرف كهذا، أكاد أجزم أن لا أحد منا يعرف أين نحن. بالطبع لن يكون للأسماء معنى".

يبدو أن صوتي ارتفع لدرجة دفعت بعضهم للنظر نحوي، فأشار جورج لهم بيده ورأسه، بأنه لا شيء يحدث، أو شيء من هذا القبيل، فعادوا لما كانوا يفعلون، ثم تدخل شخص ثالث لديه شوارب عريضة وذقن محفوفة بعناية، وبإصبعه خاتم.

كان يجلس بقرب جورج: "لا، بل هناك فرق وأهمية، فالذي يحمل اسمًا مسيحيًا لا يناله الكثير من الضرب، على اعتبار أن الحكومة لها علاقة جيدة بالمسيحيين، ولأنهم ليسوا من الثوار ضد الحكومة. صاحبنا جورج كان يدرس القانون، ولم يلتحق بالجيش، وسيأخذونه لاحقًا لأداء الخدمة. لا يتم تعذيبه مثلنا. خلينا ساكتين".

نظرت نحو جورج لأراه يهز لي برأسه مصدقًا قول الثالث. ثم عاد أبو شوارب فنطق بنا قائلًا: "ومن الأخير أنا اسمي علي، لا دخل لي بكل ما يحدث. كنت ذاهبًا إلى الجامعة، وتم إلقاء القبض علي بحجة تمويلي إرهابيين يقومون بشن عمليات عسكرية ضد الحكومة. تخيل!". أردف هذا ونظر إلى الساعة في يده، وتابع: "لكن الحقيقة أن والدي على خلاف مع الحكومة، وهذا نتيجة زعل الحكومة من أحد مواطنيها".

سألته: "على الأقل يمكنك معرفة الوقت هنا، أكثر حظًا من غيرك. أظهرْ بعض الامتنان ... هل من معنى لهذا أيضًا هنا؟! الأسماء والأسباب؟!".

علي: "بالطبع يا صديقي 101، عفوًا لقد سمعتك تقول اسمك لجورج. هنا كل شيء يشابه الخارج، مع مراعاة اختلاف النسبة طبعًا. كل شيء محسوب بعناية"، ثم صمت وهو ينظر نحو جورج.

نظر جورج نحوي وقال: ممكن أسألك سؤال"، وبدا خجلًا مما سيسأل.

"أكيد، اتفضل".

"معك فلوس، نقود؟".

"تقصد هنا؟".

"نعم، هنا في جيبك؟ أنت تعلم أنه يحق لك جلب نقودك معك في هذه المرحلة؟" ... ثم سكت.

"عن أي مرحلة تتحدث؟، لدي بعض النقود التي كانت معي قبل دخولي السجن عندما ألقوا القبض علي، ولقد أعطوني إياها فور وصولي هنا، فأنا قادم من سجون مختلفة بقيت فيها بملابسي لمدة أربع سنوات ... كانت أشبه بالجحيم لشدة التعذيب فيها. قالوا لي أنني في طريقي إلى المحكمة، ثم قدمنا إلى هنا. نعم تركوا لي بعض النقود، ودعني أسالك، ما نفع النقود هنا؟ وكيف ومتى تستخدم؟".

نظر نحوي علي أبو شوارب وقال: "يختلف السجن هنا عن السجون التي كنت فيها، لكنه سجن بكل الأحوال. يمكنك أن تحتفظ بالقليل من المال لعلك تريد شراء سندويش أو إبريق شاي لو أردت".

لحظات قليلة من الصمت سادت بعد لفظ علي كلمة شاي، ولفت انتباه البعض حولنا ذكر هذه الكلمة. قطعت أنا الصمت مستغربًا: "يا إلهي أهذا صحيح ... شاي في السجن؟!". سألتهم وكانت الدمعة قد اقترب سقوطها من عيني.

نظر نحوي جورج، وقال: "إذا معك 250 رح اشتري لك أحلى إبريق شاي، ولك عندي مفاجاة بعد إبريق الشاي بخمس ساعات. ماذا تقول في ذلك؟".

"أكيد موافق، بما أنك قلت ساعة هل لي بسؤالك كم الساعة الآن؟ فأنا منذ سنين لم أسأل عن الساعة. لطالما أحببت سؤال الفتيات عن الساعة لبدء تعارف معهن". ابتسم جورج وهو ينظر نحوي ويقول: "يا شقي، الساعة ٤ العصر".

فقلت له: "سمعتهم يقولون في الخارج أني لن أبقى كثيرًا هنا، لا أعرف هل سأبقى هنا خمس ساعات أم لا. قال لي الشرطي الذي أدخلني هناك أنهم سيجهزون الأمر لأقابل القاضي، لقد تعبت. منذ متى وأنت هنا جورج؟"، سألته وأنا أتفقد زوايا المكان البعيد عن الضوء، وأحاول عد الموجودين.

"منذ قرابة سبعة شهور".

ثم أردف علي: "وأنا منذ قرابة شهرين، أنا آخر الواصلين"، ثم سكت وهو ينظر إلى الساعة رغم أن جورج أخبرنا منذ قليل بأنها الرابعة.

كأن هناك شيء ما يحدث في هذا الوقت، وقال: "الساعة صارت 4 العصر" ... ثم سكت.

نظر نحوي جورج وقال: "قبل أن تسألني عن الوقت كنت أسالك إذا كان لديك نقود .. صحيح؟". قلت له: "نعم، صحيح".

فقال: "الساعة الرابعة يحين موعد فتح المطعم، وقتها يحق لنا التوصية على ما نريد. أعطني 250، صار وقت التوصية على الشاي. أنت أجدد الواصلين، وليس هناك غيرك يملك المال. يمكنني التحدث مع السجان وتأمين ذلك. سأقول له أن السجين الجديد لديه مال. لقد ملّ منا ونحن لم نعد نملك المال".

مددتُ يدي إلى جيبي وأخرجت المبلغ الذي معي كله، وأخذ المبلغ الذي طلبه، ثم مبلغ مثله ليشتري لنا سندويش فلافل أيضًا".

كان لدي قرابة ما يعادل الخمسين دولار من العملة المحلية في جيوبي. منها ورق ومنها معدن. قلت: "لقد كانت هذه النقود التي كانت معي على السطوح، يوم اعتقلوني. لم يسرقوها ... يا لهم من كرام!".

علي: "يفعلون هذا أحيانًا مع البعض. ليس مع الجميع. لقد كنت محظوظًا .. ها هي تلزمنا هنا" ... وضحك.

ذهب جورج يركض نحو الباب متجنباً الوطء على أقدام السجناء النائمين على ملابسهم أو حتى على البلاط. دق الباب مرات ثلاثة فأجابه الحارس بنبرة عدائية كلها استهزاء، وتبع كلامه بشتيمة: "ماذا تريد يا حمار؟".

"أنا جورج سيدي، بدي أطلب إبريق شاي وثلاث سندويشات".

فتح الشباك وقال: "اعطني النقود، انتظر ساعة".

ثم عاد جورج بعد أن أعطاه النقود من فتحة الباب، وجاء وراءه قرابة العشر رجال متوسطي العمر والطول. تكاد تراهم رجلًا واحدًا لكثرة تشابه وجوههم المتعبة والحزينة جدًا.

"سننتظر ساعة"، قال جورج وهو يجلس بجانبي في زواية الحائط بيني وبين علي، ثم بدأ الكلام علي موجهًا كلامه نحو الفراغ في الغرفة. أذكر قوله: "يجد المرء في بعض الأحيان نفسه مجبرًا على الابتكار حتى يواصل حياته، وهذا ما نفعله نحن هنا. نبتكر أساليب جديدة كل يوم لمواجهة صعوبة التواجد هنا. لم أعرف أبدًا أحد يرمي بنفسه إلى السجن بقدميه".

نظر جورج نحوه نظرة أمل مع ضحكة خفيفة: "تخيل أننا سنخرج من هنا يومًا ما لنرى الحياة بعد هذا الغياب!".

لم يعطِ علي باله لما قاله جورج وتابع كلامه: "كنت سأبدأ بالسؤال عن الوضع في الخارج، لولا أنك يا 101 قلت أنك في السجن من أربع سنوات. ما الذي فعلته ليسجنوك؟" ... ثم سكت 101.

فعرفت أنه سيتوقف هنا، فسبقته بالقول: "بدأت أحب جورج قليلًا، يبدو أنه حكيم. سنتوقف عند هذا الحد ... سأكتبه خلال فترة انتظاري المقبلة".

"يا لك من شقي حسن. عرفت أنني أود التوقف".

"شعرت بذلك عندما شربت الماء".

"هل تشعر بالاستقرار الذي كنت تبحث عنه قبل زواجك؟".

"لا أعرف كيف سأجيب على سؤالك، لكن هناك تغير كبير في سير الحياة بعد الزواج. اختلاف تام .. صدقني. أعتبرها تجربة، وأريد عيشها بكل صدق".

"يبدو أن براءة سحرت قلبك أيها الشاعر".

"يمكن لأي فتاة في العلن سرقة قلب أي شاب. لا تنسَ قولي لك سابقًا، زوجة سعيدة تعني حياة سعيدة".

"أتمنى لك التوفيق دومًا. أتطلع للقائكما هنا، أو في أي مكان آخر. سأتركك الآن لتعود لزوجتك. اعتذر منها على الإطالة".

"لا تقلق صديقي. ستتفهم ذلك. سعيد جدًا بأنك تخبرني كل هذا".

"انتبه لنفسك، إلى اللقاء".

"وأنت أيضًا، مع السلامة".

***

محادثة سكايب .. الأحد ١٧-٠٩-٢٠١٧

مضى الآن قرابة شهرين على آخر محادثة بيني وبين 101. كالعادة بعد كل محادثة أقوم بتسجيلها وأعود لأستمع لما سجلت. في كل مرة أستمع فيها ينتابني شعور بالحزن والضيق لما مر به صديقنا. يا له من مظلوم! وأفكر في تلك البلاد التي لا رحمة فيها. أفكر في نفسي التي ذاقت هذا الظلم من قبل ومرت بالكثير مما أخبرني به. ما الذي يجبرني على فعل هذا؟! هل أنا فعلًا في حاجة للاستماع لقصص معتقلين؟ أليس من الأفضل نسيان ما مررت به، وتركه يتقادم بمرور الزمن. ما القيمة من وراء سرد هذه القصة؟ قصة السجين 101؟ ما الذي ستضيفه لهذا العالم المليء بقصص مثل هذه القصة، وأقسى أحيانًا. كل ما أعرفه أنني لن أترك متابعة هذه القصص، قصص المعتقلين السابقين، لعلي أجد رابطًا مشتركًا في فكرة السجون. ما حاجة البشر للسجون؟! أليس السجن مكانًا لإصلاح البشر الذين يرتكبون الأخطاء بحق الآخرين وبحق أنفسهم؟ لكن في أوطاننا تكاد السجون

أن تكون المكان الأمثل لتنشئة المجرمين. قلة قليلة من الذين يدخلون السجون يتحولون لحال أفضل أو يعودوا لحضن المجتمع بشكل أصلح مما كانوا عليه. قد يتعلمون مهنة ما، أو يتابعون تعليمهم.

كل سجين يختلف عن الآخر في سبب السجن، ومدته، وطريقة مرور المدة، وطريقة تجاوز التجربة بعد انتهائها. هذا ما أحاول الوصول إليه. كيف يستطيع من دخل السجن أن يعود إلى حياته الطبيعية بعد خروجه منه؟! وكيف إذا كان مظلومًا أو على الأقل يرى أن ما فعله لا يستحق السجن، أو كل هذه المدة، أو كل هذا التعذيب؟!!

ألا يسمح للسجين أن يشعر؟ هل ممنوع على السجناء الشعور بالظلم بسبب ما عاشوه؟ ماذا ستكون ردة فعل السجناء في المجتمع؟!

***

كتب لي 101 البارحة رسالة يسألني عما إذا كنت أودّ محادثته اليوم الأحد، وبالطبع أجبت أن لدي الكثير من الوقت لذلك. وبالفعل، صرت أتفرغ كثيرًا لسماعه وكتابة ما يخبرني به. لعل ما أكتبه اليوم يصل بعيدًا بعيدًا ... لعل البشر يعرفون ما الذي يعيشه كل سجين في سجنه، أو على الأقل لرفع مستوى فهم الحياة في السجن وآثارها على

السجناء بشكل خاص. في الموعد المحدد كنت أنتظر 101 ومعي زجاجة بيرا باردة. كانت زوجتي في زيارة إلى بيت صديقتها.

تحدثنا قليلًا عن الحياة اليومية ومشاغلها، ثم تطرقنا لعمله في التجارة، ثم تحدثنا عن عائلاتنا التي انتقلت من بلادها لنفس الأسباب تقريبًا، فعائلتي أنا أيضًا اختارت لبنان كجهة لجوء، وافتتحوا مطعمهم الخاص في بيروت، ويعيشون من خيراته. ثم تذكرنا معًا أين توقف حديثنا آخر مرة، عند سؤال علي عن سبب اعتقال 101.

101: "نظرت نحو علي وقلت: لقد رأيت تاريخ اليوم صدفة على ورقة الأمانات. بينما كان جورج يحك حبة زيتون بيده في أرض الغرفة، وقلت: "لقد تم إلقاء القبض علي وأنا أحاول الهروب من على سطح بنايتنا بعد الهجوم على حينا من قبل قوات أجنبية. كنت أحمل كاميرتي ومعدات التصوير ... أنا صحفي. فجأت المعدات في شقة جيراننا ثم عدت بعدها إلى السطح ليتم محاصرتي هناك وإلقاء القبض علي. كانت الأمور تعيسة جدًا، الكثير من الأبرياء ماتوا في قصف متبادل بين القوات المتصارعة على السلطة. يا لها من حرب لعينة!

بقيت في منفردات مختلفة الأحجام، كانت تحمل دومًا رقم 101.

لطالما أحببت العمل كصحفي ميداني يوثق تدمير بلاده". ثم بلعت ريقي محاولًا استجماع قواي وقلت: "تخيل لو أن الحرب انتهت قبل أربع سنوات؟"، ثم سكتت. "لما كنّا اجتمعنا هنا" قال جورج هذا، وهو يحك حبة الزيتون بأرض الغرفة من أطرافها ووسطها. يبدو أنه سمع كل ما قلت لعلي.

اقتربت من جورج في فضول: "ماذا تفعل، ولماذا تفعل ذلك؟!". نظر علي نحوي وقال: "جورج مؤمن ويصنع من حبات الزيتون مسابحه الخاصة. لقد تعلم المعتقلون من بعضهم كيفية صنع المسابح من قلوب حب الزيتون".

ثم سكت عندما تهيأ جورج لإضافة شيء ما، أو للتعليق على ما قاله علي، ثم قال: "في الحقيقة يحتاج صنع مسبحة صغيرة واحدة إلى 33 حبة زيتون. يحصل واحدنا على 3 حبات كل يومين، ونحن هنا قرابة 100 شخص في الغرفتين والممر. تخيل كم هم دقيقون؟ وهكذا فإن كل 11 شخصًا يستطيعون صنع مسبحة واحدة كل يومين من حبات الزيتون الخاصة بهم".

فسألته وأنا أحمل بإصبعي حبة زيتون: "كيف ذلك؟!".

فقال: يقوم كل واحد بحك قلوب حبات الزيتون في الأرض من جانبيها في الطول، ليكشف عن جوفها الذي يحوي ثقبًا وفيه مادة قابلة للإزالة بواسطة شريط حديد نستخلصه من الشباك، وهكذا نفرغ القلوب من محتواها، ثم نضمها في حبل نستخلصه من القميص، أو البنطال، أو أي قطعة ملابس. نقوم بدهنه بالصابون عندما نحصل عليه، لكي يتماسك ومن ثم ندخل الحبات ونربط مؤخرته ليكون لدينا بعد ذلك مسبحة. هكذا فإن كل 11 شخصًا يحتاجون إلى 363 حبة زيتون لصنع مسابحهم الخاصة، وبإمكانك تقسيم العدد على الأيام والحضور".

وهنا قاطعه علي: "لقد أخبرني نفس القصة، وعلمني الطريقة من اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى هنا، لكنني لست بدرجة إيمانه ولم أعتد استعمال المسبحة. لو أتى أحد بعدك سيعلمه. يظن أن المسابح والدعاء سيخرجنا من هنا ... على فكرة لم يبقَ الكثير على وصول الشاي". ثم نظر علي نحوي بنظرة غريبة، وقال بصوت حزين: "لقد مرت البلاد بأقسى الظروف، يا لك من محظوظ أنك لم تشاهد شيئًا من هذا، فما من شعور مشابه لشعور المرء وهو يرى بلده يعيش كارثة أمام أعينه".

لم يعجب كلام علي صديقه جورج فقال له: "هذا كله يحدث بسبب الظلم. لو أننا نحكم فيما بيننا بالعدل - العدل أساس كل شيء - كنّا تجنبنا إراقة الكثير من الدماء. لكننا لا نشعر بقيمة الإنسان. نحن شعب همجي. لا انتصار من دون تضحية. الدولة العادلة تحمي أبناءها وتجنبهم القتال. لا نملك هذه الدولة. سيحدث ما هو أعظم إذا ما بقي الشعب على هذه الحال".

علي: "صدقني يا 101 كانت الأمور لتجري بشكل أفضل لو أن الشعب جلس ووجد حلًا لمشاكله. هذه المعارك التي تحدث كل فترة هنا وهناك، كم من المعتقلين ذهب ضحيتها؟ كم من الأطفال أصبح يتيمًا؟ ... قبل دخولي هنا سمعت أن الرئيس الجديد سيقوم بإصلاحات قريبة".

لم أصدق ما سمعت ... رئيس جديد؟! فسألت عن اسمه، وما هي مواصفاته.

علي: "يبدو أننا مجبرون على إخبارك بذلك. لقد أمضيت وقتًا طويلًا في سجونهم اللعينة. الرئيس الجديد كان معارضًا قديمًا للحكومة السابقة، وتم انتخابه من قبل الأحزاب التي شكلت البرلمان بعد سقوط البرلمان

القديم. لم تنتصر الثورة كما ستظن. لقد اتفقوا على حل فيما بينهم، والشعب رضي به ليجنب البلاد المزيد من الدمار وحروب قد لا تنتهي".

كأن صاعقة من نوع ما ضربتني ... ما يقوله علي ليس بالسهل تقبله. هل تفهمني يا حسن؟" .. ثم سكت 101 ليشرب.

"بالطبع ليس من السهل تقبل سماع كلام كهذا، وأوافقك الرأي".

***

101: "ثم أراد جورج أن يقول شيئًا".

جورج: " ليس إلا كسابقيه. سيظهر في البداية أنه الحل الأمثل للبلاد. فيما يلي ذلك سيكون الديكتاتور الجديد للبلاد. صدقوني، ليس فيهم خير ... إنهم كلاب جميعهم".

علي: "الحكومة الجديدة قامت بإصدار عدد من المراسيم والتشريعات الجديدة التي منحت حيزًا من الحريات، ونوعًا من الديمقراطية في التصويت. لكنهم رفعوا الأسعار بعدها مباشرة، وأوقفوا الدعم الحكومي لبعض الخدمات والأطعمة ... يريدونه بلدًا للأغنياء فقط. هكذا سمعت".

جورج: " الأغنياء سيكونون أول المستفيدين. علاقتهم وطيدة مع السلطة، والفقراء يزدادون فقرًا". كان يبدو على علي وجورج أنهما أصدقاء بشكل لافت للنظر، إن صداقتهما قوية وقديمة جدًا وليست معرفة شهرين، المدة التي قضاها حتى الآن علي هنا.

علي: "لقد رأيت في أثناء الحرب أمورًا لم أكن لأراها لو أنني سمعت كلام أمي بالسفر إلى خارج البلاد. ليتني سافرت. لكنت أصبحت لاعب كرة قدم مشهورًا والكثير من المعجبين لدي...". ثم سكت.

فقال جورج: "نحن بحاجة للإيمان بأن هناك مخلص لنا جميعًا. أعتقد أنا أن مجرد الإيمان بأن هناك يوم أخير بعد هذه الحياة، اسمه يوم العدل، وأن كل الظالمين سيعاقبون، يشعرني ويجعلني أشعر بالراحة. هذه فلسفتي في الحياة. تناقشت مع علي كثيرًا بهذا، ويأبى الاستماع لي". ثم سكت وعاد لحف الزيتون.

ما هي إلا لحظات قليلة حتى سمعنا صوت صراخ الحارس يقول: "يا جورج يا ابن الشرموطة، تعال وصل طلبك". ركض جورج مسرعًا نحو الباب، وركض معه رجل آخر من الرجال الذين اقتربوا منا فور عودة جورج من التوصية على الطلب.

قال جورج: "وصل بأقل من ساعة أيضًا" ... بطريقة ساخرة سعيدة.

وصل الشاي في إبريق شاي صنع من مادة الألومنيوم، فضي اللون. تدلى منه أطراف ثلاث علامات أكياس شاي من ماركة ليبتون، والسندويشات والكولا معًا في كيس نايلون. السندويشات كانت ملفوفة في أوراق بنية كأوراق الطباعة القديمة.

وضعهم جورج بجانبه، وتوسط الجلسة فجأة من تحت جاكيت علي ثلاث قناني ماء نايلون قديمة فارغة، مقصوصة من وسطها لتشبه كأس شرب فقاطعتُ مذهولًا هذا المشهد الذي لم أرَه منذ سنوات: "هل هذا حقيقي؟! هل تصدقونني إن قلت لكم أنني نسيت رائحة الشاي .. يا لها من نعمة أنتم فيها هنا!!".

فجاوبني علي وهو يفتح غطاء الإبريق: "لقد انتهت أموالنا هنا لأننا كنّا نشتري الأكل لأنه ليس لديهم هنا أكل كثير، أو هكذا أوهمونا لوقت حتى نستعمل كل أموالنا دفعة واحدة، فنفدت الأموال ولم يتسنَ لنا الحصول على مزيد من المال، فزيارات الأهل غير مسموحة هنا، ثم عادوا ليحضروا لنا وجبتين كسابق العهد. أنت بحاجة لأن تدفع لكل شيء، وعليك تدبر أمرك".

ثم وضع الغطاء على الأرض، بعد أن هز الأكياس في الإبريق كي تزيد قتامة لونه. سحب أكياس الشاي خارج الإبريق، وبدأ بعصرها فوق فوهة الأبريق ثم تبادل نظرة سعادة مع جورج، وكأنهما حصلا على الكنز البعيد.

قال جورج: "ها قد عاد علي لشقاوته! هل تعلم يا 101، إن ما تراه الآن هو إبداع علي الشخصي. لم يكن يعرف قبله أحد أن يفعل هذا هنا من بين كل هؤلاء، لقد رموا الكثير من أكياس الشاي دون الاستفادة منها.. تبذير. هذا قبل قدومه إلينا، كأنه مرسل مِن السماء رحمة بنا".

"وماذا سيفعل" سألته بشراهة لأعرف.

"سأتركه يخبرك بنفسه. الآن تبدأ دورية مراقبة الباب. أراكم بعد قليل". ثم مضى.

كان علي منغمسًا في عصر أكياس الشاي، وفتح الأكياس، وإفراغ الشاي منها فوق بعض أوراق السندويش القديمة التي احتفظ بها في جاكيته، وبعد أن انتهى من إفراغ الشاي من أكياسه على الورقة، قام بفرك الشاي ضمن الورقة بعملية أشبه بعملية تجفيف للشاي، وكرر

ذلك عدة مرات على أوراق مختلفة، ثم ترك الشاي على آخر ورقة قام بفعل ذلك عليها، وإتجه نحو المرحاض".

ثم توقف 101 ليشعل سيجارة. كان يبدو على وجهه علامات الحماس.

قلت له: "إنها نفس الآلية التي يتبعها السوريون في صنع مسابحهم في السجون. لقد تعلمت ذلك في سجن 248. علمني من كانوا هناك قبلي. بقيت أيضًا 65 يومًا في المنفردات حتى نقلوني إلى المهجع. أعرف تمامًا كيف هو شعور المرء عندما يرى البشر مجددًا بعد الغياب، وأعرف جيدًا ما سيفعله صديقك علي الآن. أكمل رجاء".

101: "بالطبع تعرف ... كان لديك واحدة. لم أستطع تمالك نفسي رغم تعبي الشديد ورغبتي بالاستلقاء في المكان بعد أن غادر جورج ليراقب الباب لسبب لا أعرفه حتى الآن، ولا أعرف سبب تجفيف الشاي". نظرت نحو علي وسألته: "أين ذاهب؟".

قال لي: "نحو حائط المرحاض. سأجلس في قرب النافذة والضوء، ثم سأقرّب الشاي من الضوء لمدة ثلاث ساعات حتى يجف من حرارة المصباح وتيار الهواء ثم سأعود بعد ذلك إلى هنا بجانبك وأخبرك بقية

التفاصيل. يمكنك أن تنال قسطًا من الراحة في مكاننا نحن الثلاثة، اشرب شاي وارتح، ولو كنت مكانك لاقتنصت هذه الفرصة. ثلاث بلاطات .. يا له من بذخ وتبذير!! كما يقول أبونا جورج".

ثم سكت معلقًا يده في الفراغ متيحًا للضوء الأصفر البرتقالي أن يقترب من الشاي ليجففه بالتعاون مع التيار الهوائي الذي ينساب عبر الشفاط والنافذة خلفه، والتي تؤدي إلى أعلى المبنى، كما قال علي.

"أقسم لك يا 101 أنني رأيت نفس هذا المشهد، في سجن عسكري في سوريا. كانوا يقومون بنفس ما قام به علي من خطوات. هل هي قدرة البشر المشتركة على الإبداع؟".

101: "نعم هي كذلك. جلستُ أفكر في نفسي ... هل فعلًا علي أن أستغل هذه المساحة الآن لي وحدي وآخذ بنصيحة علي؟ ... الآن فقط فهمت مدى أهمية الفعل هذا وقيمته التي تستدعي المراقبة. علي يأبى إخباري قبل مرور ثلاث ساعات. هل سأترك جورج الذي يراقب وحيدًا؟! بالتأكيد لديه من يحدثهم عند الباب. نعم، سأنام لأرتاح قليلًا.

غرقت في النوم بعد اللحظات الأولى التي وضعت فيها رأسي على وسادة جورج، فأنا منذ سنوات لم أنَم وقدماي ممدودتان هكذا. كانت قدماي طوال الوقت مطويتن إلى جسدي من قِصَرِ وضيق المنفردات التي وضِعتُ بها. الآن قد بدأت اعتياد وجود البشر حولي مجددًا، كأن شعور جماعة حولك يشعرك بالأمان، فغرقت في النوم لشدة تعبي. استفقتُ على صوت فتح الباب، وصوت قرقعة الطناجر التي تقرع في الساحة أمام الباب الذي دخلت منه.

"لقد وصل الطعام"، قال لي علي هذا وهو ينزل من على الحائط، ثم جلس بجانبي ينتظر أن يعود جورج ومعه طعام المجموعة. وقال: "يقَسِّم السجانون الطعام هنا على مجموعات. كل مجموعة مؤلفة من 11 رجلًا ولديهم صحنًا بلاستيكيًا كبيرًا نسبيًا مدور الشكل وعميقًا نوعًا ما. يسكب السجان الأكل فيه لقائد المجموعة ويعطيه كيسًا من النايلون وضع فيه 22 قطعة خبز، وكيسًا آخر يحوي 33 حبة زيتون. لكل فرد 3 حبات زيتون وقطعتان خبز".

"الزيتون هو أهم الوجبات التي تقدم في سجون بلادنا العربية. لقد أكلته لشهور سبع".

101: " كانت وجبة اليوم أرز وبامية بمرقة رب البندورة. سكب السجان الأرز في الصحن العميق وفوقه البامية، وأعطى الأكياس لقادة المجموعات الذين اصطفوا بانتظام قرب الباب.

وتابع ونحن ننظر نحو الباب من مكاننا وهو يخبئ الشاي المجفف تحت الجاكيت: " لا تسمع أي صوت في المهجع عندما يكون السجان قرب الباب يوزع الطعام، وإلا لن يكون هناك طعام لأحد إذا ما حدثت أي ضجة".

عاد جورج ومعه الصحن ورائحة البامية تنتشر في كل القبو، ومع انتشار القادة والصحون يستفيق السجناء ليتناولوا وجبتهم الأخيرة اليوم. جلس جورج في الزاوية والتفَّت حوله المجموعة التي أوصى له بها، حسبما علمت منه لاحقًا. ترأسها وقام بتوزيع قطعة خبز على كل شخص، وترك الباقي في الكيس. وقال جورج: "لقد أخبرت السجان بانضمامك إلى مجموعتنا اليوم، وطلبت منه زيادة الخبز، إلا أنه رفض معللاً رفضه بأنك لست مسجلاً في سجلات الطعام، وأنك لن تبقى هنا، لذلك سنعطيك قطعة من كل رغيف ... هل من اعتراض على هذا القرار؟". فقلت له: "يمكنني أكل سندويش فلافل، لا تقلق".

فتدخَّل علي: "لا لن تفعل. يجب أن نتركها لوقت الجوع لاحقًا. لقد بقي رغيفًا وثلاث حبات زيتون لكل واحد منا، بإمكانك اعتبارها مخزون طعام من الآن إلى الغد ... حتى الثامنة صباحًا".

ثم قاطعه جورج: "سنصلي الآن لنجاتنا من هنا، والعودة إلى أهالينا سالمين غانمين، ولنحمد الرب على نعمة الطعام هذه ... آمين". ثم بدأنا الأكل جميعًا بعد أن فهمت هذا التوزيع الذي يضمن لكل سجين وجبتين يوميًا.

وما أن انتهينا من الطعام حتى التفَّت المجموعة حول نفسها، محاولةً إخفاء علي في زاوية، متبادلًا مكانه مع جورج، ثم أخرج الشاي المجفف مع ورقة سندويش، ومن ثم بدأ بتقطيع الورقة إلى قصاصات ورق صغيرة، تكاد تكون أشبه حجمًا بأوراق لف الدخان. بالفعل لم يخب تحليلي الصحفي، وبقي القليل لأتأكد.

نظر علي نحوي وقال: "لقد أخبرتك أن الإنسان يلجأ إلى إبداعاته الشخصية عند شعوره بالحاجة. من كان يخطر بباله أن يجفف الشاي لساعات ثلاثة تحت ضوء برتقالي، ومن ثم يقص ورق سندويش

بطريقة تشبه ورق السجائر، ثم يقوم بوضع الشاي في الأوراق وكأنها تبغ وورق بفرة. من كان منا ليفكر بهذا لو لم نكن هنا؟!!".

أنهى كلامه وهو ينظر نحوي وكأنه ينتظر الإجابة على سؤاله مني، فقلت وأنا أشعر بالإهانة: "لا أعرف حقيقة. كنت في المنفردات طوال هذه المدة، ولم أستطع فعل أي شيء على الإطلاق. لم يكن في متناول يدي أي شيء مما لديكم الآن. أنتم في فندق خمس نجوم. هل كنت ستفكر في هذا لو أنك كنت تتعرض لصعقٍ بالكهرباء؟ كنت أتبول مرة يومياً وأشرب ماء من صنبور المرحاض، وبعدها أعود إلى منفردتي ... هل كنت لتفكر بشيء سوى الانتحار؟!". كنت أوجه كلامي لعلي الذي بدأ بلف الشاي المجفف بورق السندويش على شكل سيجارة، وبالفعل كانت تبدو للوهلة الأولى سيجارة حقيقية. ظننت أنني نسيت أسماء الأشياء. بينما كانت باقي المجموعة تتناول وجبتها الأخيرة لهذا اليوم.

انتهى علي من لف السيجارة المصنوعة من الشاي المجفف لساعات ثلاث ومن بقايا ورق السندويش الذي كان قد احتفظ به. ها هي سيجارة تقف بين أصابعه، وها هي سيجارة أخرى قام جورج بلفها،

ثم وضعوا بقايا الشاي والأوراق في كيس من النايلون، وقاموا بربطه بخيط شفاف، ثم قال لي علي سائلًا: هل تعرف أين سنخبئ هذا الكنز؟". جاوبته وكلي دهشة وفرح: "لا، اعذرني فأنا لا أعرف بعد كل شيء هنا، مثلك".

ضحكت المجموعة ضحكة خفيفة فور سماعهم جوابي التافه هذا، وقال أحدهم، عرفت بعد ذلك أن اسمه هشام: "سنعرف بعد قليل". وما أن انتهى جورج من ربط الكيس بالخيط، مرره لسجين آخر جلس بجانب علي على جهة اليمين. أخذ الكيس الصغير من جورج، ومن ثم استدار نحو الحائط وظهره للغرفة، وأنا أتابع ما يحدث دون أن أنبس بكلمة واحدة. هنا رأيته يحاول إدخال الكيس في فمه. رفع رأسه ناظرًا نحو السقف، وبدأ بإدخال الكيس بروية داخل فمه. أكاد لا أصدق هذا. فتحت فمي وعيوني لآخرها. هذا لا يحدث سوى في السيرك وبالسيوف، ولكنه بالفعل حدث هنا أمامي. أدخل الكيس حتى وصل إلى معدته، ومن ثم قام بربط الحبل بزاوية أحد أسنانه، وأخبرني بعد ذلك عن ما فعل، فقال: "أدخل الكيس بهدوء في فمي واتركه ينزلق نحو معدتي، ثم أترك الحبل مربوطًا هنا بين أكبر أسناني

حتى يسهل لي إخراجه مرة أخرى عند الحاجة. لقد تعلمتُ هذه الحركة من سجين سابق، كان قد أخبأ علبة شفرات مهربة في بطنه، واستُعمِلت الشفرات في أول عصيان قاموا به. لم ينجحوا في الهرب من هنا، لكنهم حاولوا"، ثم صمت. الآن حان دور إشعال السيجارة.

كان يتردد بين الحين والآخر أصوات انفجارات، منها قريب ومنها بعيد. لا نعرف أماكنها ولا ما الذي يحدث حقًا، وفور سماعنا صوت انفجار قوي قبل إشعال السيجارة أخبرت علي: "كلما سمعت أصوات انفجارات أتذكر الانفجارات التي كنت أصورها والضحايا والأشلاء. لا تفارق صورهم ذاكرتي. كنت أبكي وأنا أصور".

هاجمني شعور عارم ورغبة كبيرة في البكاء، لكنني بلعتها، وتابعت: "لقد صورتهم بيديَّ وكتبت عنهم، وعندما أسمع أصوات أناس تتعرض للتعذيب في الطرف الآخر من باب مهاجعنا أشعر بحجم ألمي عندما كنت أتألم. ها أنا مخطئ ثانية. بالتأكيد كان هناك آخرين كانوا يسمعون صوتي ولا يرونني".

فوضع علي يده فوق كتفي وقال: سنتحدث في هذا لاحقًا، أعدك".

***

بينما كنت أشاهد بنهمٍ هذه الاختراعات وهذه الابتكارات التي تولد في رحم السجن، قلتُ: الآن، شعرت بمرارة أن تكون وحيدًا بين حوائط قصيرة وسميكة، تخيفني جدرانها التي حفرها من دخلوها قبلي بأظافرهم. كنت بصعوبة بالغة مع قلة الضوء، أقرأ ما كتبه السابقون عن أحلامهم وأمنياتهم. حزنت جدًا لكوني بقيت وحيدًا طيلة هذه السنوات الأربعة، والآن أصبح للسجن معنى آخر بعد هذه الساعات القليلة معكم. كنت أقابل السجانين والمحققين فقط طيلة أربع سنوات عبر رحلة من وإلى غرف التحقيق، مرورًا بآلات تعذيب مختلفة.

لابد وأنكم أيضًا تعرفونها جيدًا مثلي أو أخبركم من أتوا قبلي عنها. ليتني أعرف أسماء الأماكن التي كنت أوضع فيها. كانت تمر أيام طويلة قبل أن يستجوبني أحد. يفتحون علي الباب ويرمون أمامي بطاطا مسلوقة وخيار. بقيت لشهور آكل الخيار النيء الأخضر والبطاطا المسلوقة. كانوا في السجن الثاني يطعمونني بندورة وتفاح وفي السجن الثالث كان يُقدَّم لي مع حُمص مسلوق مع برغل أيضًا ... يا لها من شهور!".

كان الجميع ينظرون نحوي وينتظرون أن أفرغ من كلامي، وعيونهم جاحظة مذهولة لما سمعوه. البعض كان يبكي ويقول: "لم أمر في هذا أنا"، وغيره يضيف: "لقد فعلوا بي هذا"، "وآخر يردد: "يا لهم من سفلة!"، وهناك من كان يجد في كلامي مبالغة كونه لم يُعذَّب على الإطلاق حسبما أورد لاحقًا. السجون وما أدراك ما السجون.

وفجأة نظر نحوي علي وجورج في نفس الوقت، كأنهما اتفقا على قول جملة معًا: "هل انتهيت من كلامك يا 101، لدينا موعد غرامي مع تقبيل الفتيات الجميلات". مشيران معًا بعيونهما إلى سجائر الشاي التي لفوها، ثم قال علي: "تعال معي". قلت له: "ألا تخشى أن أكون مخبرًا أعمل لدى الحكومة، وأنني هنا كي أتجسس عليكم؟!".

نظر نحوي نظرة لم أفهمها وقتها، وقال: "شعرك ليس بروكة أولًا، وشكلك يشبهنا لكنك لم ترَ نفسك بدون ملابس. الطيور على أشكالها تقع. لو أننا فكرنا بك بتلك الطريقة لما شاركناك أهم وأكبر أسرارنا.

على كل حال عندما كنت نائمًا رأينا جسدك. نعتذر، نحن في السجن يا 101. لحظة، لسنا خائفين ولقد ألقوا القبض علينا مرات عديدة، عندما كان لدينا نقود. يستطيعون أن يوقفوا ذلك بمنعنا من الحصول

على الشاي أصلًا أو السندويشات، ولكنهم يعرفون جيدًا أنه من الضروري ترك فسحة من التجاوزات هنا وإلا لما كانت الناس تنتظر قدوم مساجين جدد، لرأيتهم مجانين!".

سكب الشاي في قناني الماء النايلون، كأنها كاسات ثلاثة. سيشرب منها المجموعة كلها، ثم حمل كأسه وقال لي: "تعال الحقني"، ثم دخلنا إلى المرحاض. هل أخبرتك من قبل أن المرحاض ليس له سقف؟!".

"لا لم تخبرني. كذلك كان المرحاض الذي كنا نستعمله في السجن".

101: "يبدو أنني أغفلت ذلك رغمًا عني فكثرة الأحداث وتسارعها ورغبتي في تأخير وصفه بالتفصيل لوقت لاحق، هم السبب.

المرحاض، يبلغ قرابة متر مربع. فيه صنبور وسطل تعبئ به الماء لتشطف مؤخرتك بعد أن تفرغ حمولتك في الحفرة التي بين قدميك. الحوائط رغم وجود الكثير من الكتابات فوقها بأقلام مختلفة الألوان، لها لون العفونة على أطرافها، يبدو واضحًا. ولا يخلو الأمر من بعض الصراصير التي تطل علينا بين الحين والآخر، وأحيانًا أخرى قوارض. وأنا أتفحص المكان وأهيء نفسي للصعود خلف علي، قال لي: "لقد استفاق أحدنا يومًا ما فوجد أن الفأر يقرض له أصابع قدمه التي

كانت قريبة من الباب، ثم مات بعدها بعدة أيام نتيجة التعذيب الذي تعرض له حين ضرب على الباب مستغيثًا طالبًا العلاج . كان بيت السجان وقتها مهدمًا بسبب قصف إحدى الجماعات ومات أخوه في قوات الجيش، حسبما أخبر جورج لاحقًا. لقد كان غاضبًا جدًا. لم يكن يعرف كيف ضرب ياسر على رأسه ... كان اسمه قاسم"، وسكت.

صعدت الحائط خلفه مقلدًا إياه، كيف وضع قدمه فوق الصنبور ورفع جسمه عبر الفتحة التي سببها غياب السقوف. أراه الآن يضع يده على حرف الحائط، فوق الباب، محاولًا تثبيت نفسه، ومن ثم وضع السيجارة في فمه وقربها من الضوء. الآن أرى السيجارة تلتصق بالضوء عبر فتحات الشبك حوله. ها هي تشتعل، لم أتحمل هول الحدث، فصرخت: "يا إلهي أيعقل هذا؟!!".

ضحك جورج الذي كان يجلس مع أصدقائه في ساحة المرحاض ينتظر دورهم. عاد ونظر علي نحوي وفي فمه السيجارة مشتعلة وتصدر الدخان، فقلت: "مثلها مثل أي سيجارة مالبورو أمريكي .. يا إلهي!".

أخذ علي بدوره سحبتين من السيجارة، ومررها لي. ها أنا ذا أمسك سيجارة بعد أربع سنين غياب وإنقطاع. فقلت قبل وضعها في فمي كم كنت أدخن، في كل وقت، وقبل أن أضعها في فمي مجددًا نظرت نحو علي الذي بدا عليه الثمالة، وقلت: "كنت أحب التدخين مع صديقتي. لا أعلم عنها شيئًا الآن"، وصمتت.

أنا أنظر نحو السيجارة وعلي ينظر نحوي. أتردد للحظة ثم يصرخ علي في وجهي: "هيا بسرعة، لا تضع وقتنا".

"فورًا!"، قلتُ ووضعت السيجارة في فمي وسحبت سحبتي الأولى مع البشر ثانية بعد أربع سنوات غياب، وبالكاد دخلت الدخنة إلى رئتي وانتشر أثرها في الثواني اللاحقة لسحبتي. أعدت الكرة هذه المرة بسحبة أطول وأقوى. أكاد أجزم أنني سحبت بكل ما أوتيت من قوة، وأعدتها لعلي الذي أشار إلى شاب ثالث بالصعود نحونا.

صعد الشاب فورًا بنفس الطريقة وجلس في الحائط المتوسط بين المرحاض والآخر. أخذ حصته وعاد إلى موقعه تحت، وهكذا حتى انتهت السيجارة الأولى، وتبقى منها سحبتين أو أكثر، قال علي: "على اعتبار أنك دفعت ثمن إبريق الشاي، وأنا من قمت بتجفيف الشاي

ولف السيجارة، يحق لنا حسب العرف أن نأخذ نهاية السيجارة لأنفسنا. ما رأيك في هذا؟ حتى في السجن هناك قوانين".

فقلت: "يشعر المرء بعد بعده عن البشر أنهم غير قادرين على التأقلم كما كنت أشعر طيلة الوقت، لكن يبدو أنني كنت على خطأ. القانون يصلح لكل مكان .. لِمَ لا؟! .. أعطني".

أخذت سحبتي التي كنت موعودًا بها، ومن ثم علي أخذ سحبته ورمينا العقب في جورة المرحاض فور نزولنا مع نظرة تواطؤ. لقد شرب ستة أشخاص من السيجارة ... أربعة منهم الآن أمامي يترنحون ويريديون النوم بشدة، وأنا يبدو حالي مثلهم. يا لها من فرحة تحتاج لنوم بعدها!

صعد جورج وصديقنا الذي خبأ الأغراض في معدته، وباقي الشلة تباعًا. وكما كان لنا نحن، كان لجورج وصديقه المخبئ لعدة اللف، سحبتان إضافيتان لدورهما في العمل ... يا له من قانون جميل هنا!

انتهى الرفاق من طعامهم وأحاديثهم المعتادة بعد الطعام كونهم باتوا مفعمين بالطاقة. انتهينا أيضًا من شرب السجائر واجتمعنا في الفسحة أمام المرحاض حول بعضنا البعض.

نظر جورج نحوي وقال: "الأيام هنا تشبه بعضها. الناس اعتادت على الوضع هنا. لقد تعبنا. في الغرفة الأخرى هناك تحدث المشاكل عادة، وبالتالي يأتي الحراس ويخرجون من قام بالمشاكل فيعاقبوه في الساحة أمام الباب ليراه كل من بالغرفتين والممر".

وقال علي: "في الطرف المقابل لنا هناك السجون الإنفرادية. هناك يتم معاقبة من يسبب المشاكل أو يبدأ شجارًا مع أحد"، وأشار بيده إلى صديقه الذي جلس أمامه وقال: "حمود كان هناك مرة لضربه مخبرًا للدولة. عاقبوه شهرًا في المنفردة ثم أعادوه". نظر حمود نحوي وقال: "لقد كان يستحق الضرب. ها أنا هنا ثانية، وقد تم نقله إلى غرفة أخرى بالتأكيد بعد أن فُضِح أمره"، وسألني حمود: "كيف أمضيت سنوات السجن هذه يا 101؟ أنا هنا منذ شهور تسعة، هنا نعرف الأيام والساعة وكل شيء عن الخارج عندما يصل أي سجين جديد. أخبرنا .."، ثم سكت منتظرًا مني الجواب.

فقلتُ: "هل لدينا قلم هنا؟". أجاب علي: "يا رجل، نحن أهل الورق والأقلام، لحظة"، ثم مد يده في جاكيت كان بقربه دومًا ... أخرج قلمًا وورقة سندويش، وأعطاني إياها.

فبدأتُ أنا بالقول: "بما أنني الآن عرفت كَمَّ السنوات التي أمضيت هناك في السجون السابقة. يمكنني تقسيم الطعام في السنتين الأولتين إلى: خيارة وحبة بطاطا مسلوقة كل يوم. بينما كنت أحظى لمرة واحدة في الأسبوع بفخذ فروج مع رغيف خبز أو رغيف خبز مع قطعة لحم، بالتبادل. حسب ذلك فإن كل ما اقتات عليه جسدي النحيل في الشهر الواحد: 26 خيارة، و26 حبة بطاطا، أو أقل أو أكثر، بالإضافة إلى فخذَي فروج، وقطعتَي لحم، وأربعة أرغفة خبز. تخيل ذلك على مدى السنتين الأولتين! هكذا كنت أعد الأيام وأقسمها حسب الوجبات: 624 خيارة، 624 حبة بطاطا مسلوقة، 48 فخذ دجاج، 48 قطعة لحم، 44 رغيف خبز.

وقد تم حرماني من دخول المرحاض أو شرب الماء 50 مرة، فكان مجموع المرات التي دخلت فيها المرحاض في أول سنتين 680 مرة، ليوازي نفس عدد المرات التي شربت الماء فيها. فكلما وُهبت فرصة للذهاب إلى المرحاض، كنت أضع فمي في صنبور الماء حتى أرتوي، لأعود بعدها إلى منفردتي".

ثم سألني أحد أصدقاء علي: "هل كانوا يعذبونك بشدة؟" بلهجة خائفة. فقلت: "بعد كل مرة آكل فيها لحمًا أو فروجًا كان لي جلسة تعذيب. 24 جلسة تعذيب في الماء البارد، حيث يضعونني في حوض ماء مثلج لمدة من الوقت. يسألونني نفس الأسئلة. 24 مرة سكبوا على وجهي ماء، 24 مرة عذبت على سرير خشبي يفتح ويغلق، 24 مرة جلست على كرسي الكهرباء. كانوا يعلقون لقاطة في شفتي العليا ومثلها في قضيبي أو خصيتيَّ، ومرة في شفتي السفلى وحلمة صدري". فتدخل علي وقاطعني، سائلًا: "ماذا عن السنتين الثانيتين؟ كيف كان الحال؟".

فقلت له: "مع بداية السنة الثالثة للاعتقال، نقلوني إلى منفردة أخرى في مكان آخر. لا أعرف الأسماء ولا أسال عنها. كانت المنفردة الجديدة تحمل نفس هذا الرقم "101". لقد كانوا يعطونني كل يوم حبة بندورة وتفاحة، وفي اليوم السابع يكون إما نخذ فروج أو قطعة لحم مع رغيف خبز. كأن لهذا الترتيب أهمية في كل سجون الكون. لقد أكلت 312 حبة بندورة و312 تفاحة، حسبما أذكر الآن. 24 قطعة لحم، 24 قطعة فروج، 44 رغيف خبز.

بنفس الأسلوب كان هناك حرمان من الخروج إلى المرحاض. سجلت 330 مرة دخول إلى المرحاض في السنة الثالثة، ومثلها عدد المرات التي شربت. تخيل هذا النظام والترتيب لديهم .. لو أنهم استخدموه لمصلحة البلاد!! .. وكان هناك 24 جلسة تعذيب بالدولاب. يا له من قاسٍ!! .. يدخلونني في دولاب سيارة ثم ينهالون علي بالضرب. أيضًا 24 جلسة كهرباء. وأخيرًا نقلوني إلى منفردة جديد، كانوا ينقلونني في سيارة ليلًا، ورأسي مغطى، فلا أعرف الطريق ولا المكان".

وسكتت، لينظر نحوي جورج نظرة فيها الكثير من العطف والشفقة، وبدا عليه الحزن لما أخبرته، ثم قال: "لقد كانوا يحضرون الطعام بانتظام إلينا، ولكن نتيجة للتفجيرات التي تحدث بالقرب من هنا، كان يتم حرماننا بعض المرات من الأكل. فكنا نجبر على شراء الأكل من مطعم السجن الذي يحضر الأكل للموظفين هنا، لكن الأمر هنا يختلف عنك ... كان الله بعونك يا بني!". تدخل علي كعادته وقال: "هل تريد إخبارنا عن السنة الأخيرة؟"، فجاوبه جورج: "سيحكي لنا تفاصيلها في الغرفة الثانية. سآخذه ليتعرف بماجد".

فسألته: "من هو ماجد؟!".

فضحك وقال: "ستعرف بعد قليل، تعالَ وأحضر معك كأس الشاي وأنا سأحمل الإبريق"، ثم نظر نحو المجموعة وسأل: "هل من أحد يريد مرافقتنا؟". فنظر نحوه علي وقال: "الساعة الآن أصبحت العاشرة ليلًا، لا حراس قريبين بعد الآن. سآخذ بعض الشاي والورق معنا، لعلنا نحتاج سيجارة أخرى مع كأس شاي، بينما نستمع إلى حكايا ماجد الطويلة".

ثم سكت ونظر إلى صديقه الذي أخفى المعدات في معدته، وأشار له برأسه ليخرج المعدات، وقال لجورج: "اسبقوا إلى ماجد وسنلحق بكم أنا وحمود".

مشينا من مكاننا أمام المرحاض في الغرفة رقم (١) إلى الغرفة رقم (٢) عبر الممر التي يصل بين الغرفتين. الغرفة الثانية كانت أكبر من الأولى، والضوء فيها أوفر. كان بإمكاني النظر حولي ورؤية السجناء مستلقين على ظهورهم، أو جالسين يتحدثون. وفي زاوية الغرفة وبنفس التصميم كانت المراحيض ذاتها وفسحة أمامها. أبواب المراحيض هنا أطول. ينظر جورج نحوي وهو يقدم لي المكان: " هنا يمكنك الاستحمام لو أردت، ولكن يبقى أن يوافق العم ماجد".

قلت: "أصبحت الآن أكثر تشوقًا للقائه". قام جورج بالمشي باتجاه المرحاض ومشيت خلفه إلى مكان العم ماجد الذي أتشوق لقاءه.

كان يجلس ماجد ذو الستين عامًا من عمره في زاوية الغرفة، بجانبه ثلاثة أو أربعة كتب ... شعره طويل، ذقنه طويلة، هزيل الجسد، يسعل كثيرًا. جلسنا حوله أنا وجورج، وتركنا مكانًا لعلي وحمود.

قدمنا جورج لبعضنا بالاسم، ثم صافحته باليد. كان يبدو عليه الهدوء، لكن سرعان ما يغضب بعد السعال. يكن له الجميع الاحترام والمحبة.

بدأ ماجد الحديث قائلًا: "أبي فراس الحمداني عندما كان أسيرًا، وسمع حمامةً تنوح على شجرة عالية بقربه، أراد منها أن تشاركه في أحزانه، وتحمل عنه بعض الهموم، فقال يخاطبها، وهو في سجنه:

أقولُ وقد ناحت بقربي حمامةٌ ... أيا جارتا، هل بات حالك حالي؟

أتحملُ محزونَ الفؤادِ قوادمٌ ... على غصُنٍ نائي المسافةِ عالِ

أَجارتَنا، ما أنصف الدهرُ بيننا ... تعالَي أقاسمْكِ الهمومَ تعالِي

تعالَي ترَيْ روحًا لديّ ضعيفةً ... تردَّدُ في جسمٍ يعذَّبُ بالِ

أيضحكُ مأسُورٌ وتبكِيْ طَليقةٌ؟ ... ويسكُت محزونٌ ويندبُ سالِ؟

لقد كنتُ أولى منكِ بالدَّمعِ مقلةً ... ولكنّ دمعِي في الحوادثِ غال

فقلت له: "هل تعلم أنه طيلة أربع سنوات لم يكن يطرح علي سوى سؤال واحد!". فقال: "وما هو؟". فقلت: "كانوا يسألونني، لصالح من تعمل ومن يمولك؟ فقط". نظر ماجد نحوي وقال: "ولصالح من تعمل؟"، وضحكنا كلنا دفعة واحدة وكأن أحدنا يطلق النكات.

فقلت: "هل تصدقون لو قلت لكم أنني لا أعمل لصالح أحد؟! أقسم لكم أنني كنت أقوم فقط بذلك وأعترفت مرارًا، وأنه كان لدافع وقف حدوث هذا، ووقف القتل بإظهاره للعالم حتى يتدخل لوقفه، فقط لأجل أن يكون لدينا عالمًا أفضل لأطفال لا تربطني بهم أي صلة سوى أننا بشر. كنت أحلم بأن يكون هناك عالمًا خاليًا من الدمار والحروب. فقط لأجل أن لا أرى دمع أحد أو دمه. الحياة أجمل من أن نعيشها فقط بالحروب"، وسكتت.

نظر جورج نحوي محاولًا بدء الكلام أو الإجابة على كلامي، ولكن سبقه فتح الشباك الصغير في وسط الباب الرئيسي، ثم صرخ السجان يقول: " 101، تعال، وأعطِني البشارة ... القاضي بانتظارك يا ابن القحبة".

لم أصدق ما سمعته آذاني، ولا الرجال من حولي، وسألتهم: "هل هذا الذي سمعته صحيح؟ هل سأقابل القاضي؟ هل سأخرج من هنا حقًا؟ لا أصدق"، وسقطتُ على ركبتي باكيًا.

صرخ السجان: "يلا لدي عمل يا حيوان"، فودَّعت الرجال من حولي بقول جملة واحدة: "لقد تعلمت الكثير منكم هنا، ولأجلكم سأفعل ما بوسعي". التفوا حولي وعانقوني كأنني ابن لهم أو أخ أو حفيد.

وقال علي: "لم تقل لي كم عمرك؟". قلت له: "30" فقال: "وأنا أيضًا". مددت يدي إلى جيبي. أردت إعطاء جورج النقود التي بقيت لدي، فرفض، ووضع مسبحته وورقة كتب عليها أسماء المعتقلين وأرقام هواتف أهاليهم في يدي وشد عليها، وقال: "تعرف ما عليك فعله". فهززت رأسي مجيبًا: "نعم". لحق بي مجموعة كان من بينها علي وجورج في المقدمة، وصولًا إلى الباب يدعون لي بالخروج من هنا، وعانقوني وخرجت من الباب. لم يكن هناك الوقت الكافي لأحكي لهم تفاصيل السنة الرابعة.

صعدت مع السجان إلى الأعلى. بدون أي ضرب. بدون أية شتيمة. بدون أي كلام من أي أحد منا. صعدنا الدرج صامتين. يسير أمامي

وألحقه. قدماي لا تحملان جسدي. استندت إلى الحائط لأساعد نفسي، والسجان لم يزعجه الأمر تلك المرة.

دخلنا إلى غرفة بجانب غرفة الديوان التي دخلتها أول ساعة وصولي. لم يضع لي أحد أي كلبشة أو أي طماش. ماشيًا وحدي دون أي سحب أو جر أو شحط".

هنا سكت 101 ليشرب الماء وعلامات التعب تظهر على عيونه، ثم قال: "هل نتوقف هنا؟ لم يبقَ الكثير، شارفنا على الانتهاء".

"بالطبع، يمكننا هذا، أتطلع لسماع بقية التفاصيل".

"سأذهب لأنام بعض الوقت. سأسافر غدًا إلى إيطاليا. سيكون من الممتع قضاء بعض أيام العطلة هناك".

"كم يحزنني أننا لم نكن نستطيع التنقل والسفر براحة بين بلداننا الكثيرة ... يا لنا من مثيرين للشفقة!!".

"كنت أفكر بين الحين والآخر بسبب بقائنا هنا في أوروبا. ألم نكن نحلم بحياة مليئة بالحرية والديمقراطية؟! ها نحن الآن نعيشها".

"لن تصدق مدى سعادتي في هذه التجربة هنا في النرويج، وأقول دومًا لو أننا نستفيد من هذه التجارب فيما بعد لبناء مجتمع جديد مبني على أساس العيش المشترك والمساواة بين كل مكونات المجتمع".

"ستحصل بلادكم يومًا ما على الحرية التي تريدون يا حسن، ولكن انظر إلى بلادي. ألم تنتهِ الثورة؟ ما الذي تغير؟ هل تعتقد أن بلادي تعيش حالة الحرية التي كنا نحلم بها؟! لا يا صديقي. بكل الأحوال أنا مضطر للمغادرة الآن. لنا حديث جديد عن الأوطان. انتبه لنفسك أنت وزوجتك، إلى اللقاء".

"حسنًا يا صديقي ... وأنتم أيضًا، إلى اللقاء".

***

محادثة سكايب .. السبت ١٦-١٢-٢٠١٧

هل يا ترى ستكون هذه هي الجلسة الأخيرة كما أخبرني 101؟ هل يعني هذا نهاية كتابة هذه القصة؟!

كنت في وقت انتظار المحادثات أتابع عملي في النهار كمترجم في مؤسسات الدولة هنا في النرويج، وأقابل بين الحين والآخر مهاجرين جدد وصولوا النرويج حديثًا. كنت أقوم بعملي كمترجم بينهم وبين المؤسسات، وكنت ألتقي من بينهم بأشخاص تم اعتقالهم في سوريا، أو في بلدان مجاورة، وكثيرًا ما كنت أحاول التركيز في التفريق فيما بينهم. كلهم لديهم قصصهم الخاصة وراء سجنهم. منهم من كان يعتنق فكرًا غير مقبول في دولته، منهم من كان معتقلًا سياسيًا، منهم من كان يؤيد الثورة هنا أو هناك، وكلهم نالوا ما نالوا من تعذيب واضطهاد وظلم دفع بهم في نهاية المطاف إلى الهجرة.

كثيرًا ما كنت أشارك في النقاشات الطويلة بين سكان البلد الواحد عن مدة هجرتهم، أو حاجتهم لها، أو عن رأيهم في الدول المضيفة

ومأخذهم عليها. في كل مرة ألتقي فيها سجيناً، أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام التي قضيتها في سجون دمشق في ظل حكومة الأسد، التي تدير البلاد من خمسة عقود تقريباً، في منفردات أو في مهاجع السجون العسكرية أو السجون المدنية. كلنا، نحن معشر المعتقلين، مللنا من الطريقة الوحشية التي تعاملنا بها حكومات بلادنا، أو من نظرة المجتمع لنا بعد السجن. فمنهم من أخبرني عن أنه خسر كل علاقاته بعد خروجه من السجن. كلهم كانوا خائفين من أن يتورطوا في شيء ما إذا ما حافظوا على صداقته، ومنهم من أخبرني كيف صادرت الدولة كل أملاكه فلم يبقَ له شيء. منهم أيضًا من اعتقل لسنوات طويلة بسبب معارضته لطريقة الحكم في بلاده، أو لأنه يفكر بطريقة مغايرة لتفكير الشعب من حوله. أوَليست هذه الأسباب كلها كافية للهجرة؟! وما العيب في الهجرة أساسًا؟ ألم يهاجر نبي المسلمين محمد ﷺ عندما شعر بالظلم والتعب في بلده ومن قومه الذين لم يؤمنوا به؟! ثم عاد إليها فاتحًا. أليس من حق الإنسان تقرير مصيره وفي أي أرض يعيش؟!

***

أرسل لي البارحة 101 رسالة قصيرة مفادها أننا سنلتقي اليوم، السبت الساعة السادسة مساءً على سكايب، لنكمل ما تبقى من قصته، وبالفعل كان كلانا في الموعد المحدد للقاء. قلت له مع بداية اللقاء: "يا هل ترى هل كنّا سنكون دقيقين في المواعيد لو أننا ما زلنا في بلداننا؟!". ضحك بدوره ضحكة عالية وقال: "كنت أحدث ماريا عن هذا الأمر. لا تأخير أبدًا في مواعيدنا، وهذا ما يجعل بنظري أمر صداقتنا أقوى".

ثم أكدت على كلامه: "إننا نتعلم في الواقع الكثير من هذه البلدان، وبنفس الوقت لدينا الفرصة لتقديم ثقافتنا وممارسة حياتنا السياسية والعملية بكل هدوء، إذا ما أردنا"، ثم عاد بنا 101 إلى يوم لقائه القاضي.

101: ". . دخلنا إلى الغرفة بجانب غرفة الديوان، وكانت هناك المفاجأة. كان هناك حلاق ينتظرني. نعم، حلاق. أمرني بالجلوس ساكنًا أمامه على الكرسي. بعد أن ألبسني مريول الحلاقة، ومن ثم بدأ برش الماء على شعري ووجهي بواسطة مضخة ماء، ثم بدأ بقص شعري باستعمال مقص كبير نظرًا لكثافة الشعر وطوله.

لم يتحدث أي أحد في الغرفة، ولم يقال أية كلمة. كان فقط صوت المقص المسيطر على الأجواء، ومن ثم عندما سنحت له الفرصة لاستخدام الماكينة الكهربائية، فعل ذلك، وهذب لي شعري من الأطراف، وأزال لحيتي التي كانت تصل إلى نصف صدري. ها هو يضع لي الصابون على خدودي ويفركه ليبدأ رحلة حلاقة الشفرة، ثم قال فجأة: "مضى وقت طويل على آخر حلاقة. أليس كذلك؟!".

"نعم، سيدي" قلت له. قال: "أنا لست سيدك، أنا مجرد حلاق"، وضحك هو والعسكري الذي أدخلني.

كنت أنظر طوال وقت الحلاقة إلى شعري المتساقط حولي، كما تتساقط الأمطار من الغيوم. كم استغرق من الوقت حتى وصل إلى ما وصل إليه من طول!! وها هو يتهاوى أمامي بسهولة بالغة، وسرعة فائقة!

بعد أن انتهى هذا الحلاق اللطيف من الحلاقة، ونظف الشعر عن المريول، طالبني بالنهوض لنفض الشعر عني ... كانت كومة الشعر كبيرة بين قدمي. فقلت له: "هل تسمح لي بجمعه وأخذه معي؟ لقد أحببته واعتدت على وجوده معي"، فضحك وقال: "ليس لدي

كيس"، فقلت للسجان، وأنا أنظر للأسفل محاولًا إخراج ما لدي من نقود في جيبي: "أستطيع دفع كل ما أملك إذا وجدت لي كيسًا؟". فقال السجان وقد ثبت ناظره علي: "سأجلب لك كيسًا، وسيجمع الحلاق شعرك ويضعه بداخله وسيضعه عند الباب. إذا خرجت خذه معك، وإذا لم تخرج، سيرميه الحلاق، لكنني سآخذ القليل من هذه الأموال. تعالَ لأوصلك إلى عند القاضي. سأعطي الكيسَ الحلاق". وأعطيته قسمًا من المال حين أشار لي أنه يكفي، وخرجنا من الغرفة إلى الممر، ثم مشينا من أمام غرفة الديوان، وأدخلني إلى غرفة كتب على بابها "القاضي" مقابل غرفة الديوان. الغرفة التي أدخلوا عليها رفاق الطريق إلى هنا نفسها.

بينما كان يقرع الباب وينتظر الإذن بالدخول، رجعت في ذاكرتي إلى لحظة وصولنا. كان باب القاضي مفتوحًا للداخل ولم ألحظ وجود كلمة "قاضي" على الباب. أيعقل أنه قد تم إطلاق سراحهم؟ لكن ماجد أخبرني أنه لا يخرج أحد من هنا. صرخ أحدهم من داخل الغرفة: "ادخل"، فأدخلني ورجع إلى الوراء وأغلق الباب وراءه.

كان هناك في الغرفة مكتب كبير أمام الباب مباشرة. يجلس خلفه على كرسي ضخم رجل ببدلة عسكرية بدون رتب على كتفيه. يبدو أنه القاضي الموعود. القاضي الذي انتظرت لقاءه أربع سنوات. أمامه كرسيان وطاولة زجاجية بينهما، فوقها قنينة ماء بلاستيكية، رماها لي فور دخولي رجل ببدلة رسمية كحلية اللون وبقدميه حذاء جلدي بني. كان جالسًا على أحد الكراسي، ومن جهة اليمين للرجل العسكري. قال لي: "اشربْ".

نظر نحوي الرجل من وراء المكتب، وبدأ كلامه متوجهًا به إلى الرجل إلى يساره: "اكتب يا عسكري. بعد الاطلاع على سير التحقيق والنتائج الواصل إليها، وبناء على محضر مخفر الشرقية: تبين لدينا أنه لا أدلة مثبتة على ارتباط المدعو 101 بأي جهة خارجية تسعى لهدم دولتنا العظيمة، وأنه اعترف بالتهمة الموجهة إليه - بالتقاط صور لما يحدث في البلاد وإرسالها لقنوات أجنبية، ولكن لم يثبت لدينا أنه كان عمالة. إنما تعامل، وبعد التحقيق تبين أنه لم يتلقَ الأموال لقاء فعله المذكور كصحفي بل كان مجانيًا، وبأدوات تعود ملكيتها للمتهم 101، وبدافع شخصي مع سبق الإصرار.

وعلى اعتبار أن 101 أمضى فترة أربع سنوات تحت ذمة التحقيق، وهي تساوي مدة العقوبة المنصوص عليها في قانون البلاد لمثل جريمته، وبناء على انتهاء التحقيق مع السجين 101، وباسم الشعب، حكمت المحكمة حضوريًا على 101، بإطلاق سراح فوري بغير شروط، ما لم يكن مطلوبًا في جرمٍ آخر"، ثم سكت ليشرب الماء.

وقعت أرضًا على ركبتيَّ بدون وعي ولا إدراك عندما سمعت حكم القاضي بإطلاق سراحي، وهممت أن أقول شيئًا ما، ولكن الرجل الجالس أمام المكتب طلب الإذن بالكلام، ولما حصل عليه من القاضي قال: "لقد تفحصنا سجله العدلي، ليس لديه أي جرم آخر، سيدي القاضي، وهذه ورقة تثبت ذلك. تفضل حضرة القاضي". وأعطى القاضي ورقة لم أعرف وقتها محتواها، ونظر نحوي وقال: "أنا المحامي عنك". هززت رأسي أن أهلًا بك.

فنظر القاضي إلى الكاتب بجانبه وقال له: "يُعطى 101 جميع ممتلكاته التي في الأمانات، وها هي أوراقه الثبوتية الشخصية، واكتب أيضًا: لقد قام القاضي بختم يديه الاثنتين بأمر إطلاق السراح فورًا. انتهت الجلسة. شكرًا لكم.

سيكون هناك موظف على الباب، سيأخذك لاستلام أغراضك. بإمكانكم الانصراف ... وداعًا"، وراح يقلّب أوراقًا على مكتبه.

قال المحامي: "شكرًا لرحمتكم أيها القاضي"، ثم وقف وساعدني لأقف. كنت بقية الجلسة بعد الحكم جالسًا على ركبتي غير قادر على نطق أية كلمة. طلب المحامي مني الانسحاب من الغرفة بإشارة من عينه، كأنه أراد أن يقول: "لا تقل شيئًا، امشِ"، واستدرنا متوجهين نحو الباب، وها هي مرآة ثانية بجانب الباب.

بدا لي في هذه المرآة هيئة شخص غير الذي رأيته أول مرة عندما أحضروني. كدت أتسمر مكاني أمام المرآة ... هل هذا أنا؟!!

فأدار المحامي ظهره للقاضي، وقال: "شباب اليوم، تعلم!"، ووضع يده على ظهري لنخرج. وقفت خارج غرفة القاضي، واستدرت نحو المحامي، وقلت: "لدي شيء ما يخصني وراء هذا الباب، سنأخذه معنا"، فقال: "سيأخذونك الآن لتتسلم أغراضك".

"هناك شيء ما موجود هناك في تلك الغرفة، بجانب الباب قطعًا، هل يمكنك قرع الباب؟"، فقال وكله تعجب: "طبعًا، اتبعني"، ومن ثم مشينا نحو الغرفة بجانب الديوان حيث قصوا لي شعري.

طرق المحامي باب الغرفة. كان الحلاق يجلس على كرسيه، ويشرب الشاي، وبجانب الباب وُضع كيسًا أسود. أشار لي بكأس الشاي وحواجبه قائلًا: "شعرك الذي أردت في الكيس ... ألن تعطيني شيئًا؟". حملت الكيس ومددت يدي إلى جيبي وأخرجت كل ما لدي من نقود، وقلت: "تفضل، هذا كل ما لدي، شكرًا".

كنّا نقف في مدخل الباب. لم ندخل إلى الغرفة، استدار بنا المحامي وأغلق الباب خلفه، ثم وصل السجان الذي جلب لي أغراضي كلها، كما أمر القاضي، في كيس ورقي، وعليه ورقة يجب التوقيع عليها قبل الاستلام، وبينما أعطاني القلم لأوقع قال: "ألن تعطينا شيئًا؟". كم هو كبير هذا الفساد بداخلهم جميعًا!!

نظرت إلى المحامي مباشرة. فمد يديه إلى جيبه، وأخرج ما هو قرابة خمسة دولارات بالعملة المحلية كانت في جيبه، وأعطاها للرجل الذي مضى بعد أن ترك في يدي الكيس الورقي، دون أن أفتحه أمامه حتى. اتجهنا نحو الباب الذي دخلت منه صباحًا. كان الحراس كلهم واقفين طوال الوقت كما تركتهم وقت الظهيرة. الوقت أقرب إلى ما بعد منتصف الليل الآن.

وما أن فتح لنا السجان الباب وخرجنا، عانقني المحامي عناق الأب الذي أشتاقه أنا الآن وأحتاجه. سقطت أمامه من بين يديه أرضًا باكيًا حزينًا مكسورًا. كنت في أمَس الحاجة إلى الصراخ. كنت أقرب إلى الموت اختناقًا بصوتي وأنا أكتمه بسبب المكان حولي.

كان الطقس في آذار عذبًا، والقمر باهتًا يتوسط السماء، ورائحة عطور تصل إلى هنا من مكان لابد أنه ليس بعيد عن هنا. هذه النسمات التي أشتاق. فتحت ذراعي لأحضن الفراغ والهواء والدنيا، وأخرجت المسبحة من جيبي وأمسكتها بيدي.

نظرت نحو المحامي وقلت: "أربع سنوات؟! وها أنا مجددًا على قدمي حرًا". قال : " لقد انتهت الآن. السيارة خارج المبنى بأمتار قليلة. ستمشي معي قليلًا، وستحدثني لاحقًا في طريقنا كيف مضت بك الأيام"، ثم أردف بعد أن أخرج علبة سجائره والقداحة: "لابد وأنك جائع. لا أظن أنه لديهم منه هنا في هذا المكان القذر"، وضحكا معًا.

قلت له: "لا، لست كذلك حقيقة. لقد تناولت العشاء مع السجناء. ولكن هل لي بطلب؟".

"بالتأكيد".

"هل لي بسيجارة منك؟"، فأعطاني علبة مالبورو أحمر، وأمرني أن أضعها في جيبي فهو لديه علبة أخرى في السيارة. "شكرًا جزيلًا، باسم. لن أنسى مساعدتك" ... اسم المحامي باسم.

نظر نحوي بعطف وتفهم وقال: "لا تشكرني، عليك شكر أباك الذي دفع الكثير لقاء خروجك. دفع ثمن حريتك لهذا القاضي التافه اللعين. إنهم عصابة لا أكثر ... ولن يتغيروا".

نظرت نحوه ولم أستطع قول أي شيء سوى: "هل أهلي بخير؟ هل تأذوا؟". فقال: "نعم، الكل بخير. لا تقلق. أبوك رجل له علاقات. تساعدنا معًا أنا وهو. إنهم في بلد قريب من هنا. دفع والدك لفرقة عسكرية حتى تخرج أمك وأختك من البلدة. هو كان خارجها كما تعلم ولم يستطع الدخول، فأخرجهم هو لعنده، ووكَّلني بقضية البحث عنك فوجدناك. وتطلَّب أمر إخراجك بعض الوقت لصعوبة إيجادك. ها أنت الآن في طريقك إليهم. سأعمل على إيصالك لهم. ستكون رحلة صعبة، ومن هناك سيكون بانتظاركم القدر الذي سيتجه بكم لمكان لا يعلمه سوى الله"، وسكت.

فقلت له: "ليس بهذه السرعة. علي فعل شيء ما في البلدة قبل أي شيء، وهناك بعض الاتصالات التي علي إجراؤها قبل الرحيل وأنت لديك بعض الدعاوى التي ستتسلمها بعد أن تتصل بأهل المساجين. لن أرحل قبل فعل هذا، ولن أموت أيضًا. لقد وعدتهم".

نظر نحوي وقال: "لنرحل عن هنا أولًا. لقد كبرت. أخبرني والدك عن رحلتك الأولى في قيادة الدراجة الهوائية. لقد كنت أنا وأبوك في نفس الصف عندما كنا في الصف الخامس، ونفس المقعد حتى. أنت تشبهه ... عنيد".

ثم وضع يده على ظهري عندما فتحوا لنا بابًا صغيرًا مخصصًا بجانب البوابة الكبيرة. مشينا نحو موقف السيارة بجانب المبنى. ركبنا في السيارة واتجهنا باتجاه بلدتنا فسألت المحامي: هل لي أن أسألك ما اسم هذا المكان؟ ... قال: "إنه سجن الموت" ... وسكت.

***

"ركبنا السيارة وتوجهنا إلى بلدتنا. كانت تبعد ساعة عن سجن الموت هذا. لن تصدق مهما أخبرتك عن سعادة اللحظة تلك". ثم سكت

.101

كنت ألحظ البريق في عينيه جراء الدموع، ولكنني كنت أبكي أيضًا. كيف لهذا اليوم أن ينساه أي منا؟!

فقلت له: "أذكر بكل تأكيد تلك اللحظة التي خرجت فيها من السجن إلى الحياة. كنت أريد وبشدة تقبيل كل العصافير، كل المارة، كل السيارات، كل شيء، أي شيء ... يا لها من لحظات!".

"الآن وقد أخبرتك القصة كلها ...".

"لا ليس كلها عزيزي، بقي أن تخبرني المزيد عن السنة الأخيرة. هل تريد ذلك؟ أم أنك تعمدت عدم ذكرها؟".

"بلى، لم يكن هناك الكثير المختلف. نقلوني بسيارة ما بنفس الطريقة من سجني الثاني ليلًا، إلى السجن الثالث، مقيدًا ومطمَّشًا. أدخلوني عبر باب. تبين أنه مصعد ثم نزل بنا بضعة طوابق، هناك رفع أحدهم طماشي وفك قيدي ورماني في منفردة، تكاد تكون نفس المنفردتين السابقتين. كنت أقول أنها هي نفسها لولا ذهابنا بالسيارة.

كان الطعام بين برغل وحمص مسلوق طوال الوقت، ويوم التعذيب كان كعادته مسبوقًا باللحم أو الفروج. هل تصدق أنني لم أكترث لوجودي هناك؟! كنت مقتنعًا أن لكل مرحلة خصوصيتها، ولكن

وجود السؤالين نفسهما من أشخاص جدد، كان يريح قلبي. إجابتي كانت نفسها .. كل شيء كان كما اعتدت: أرفض ، أستنكر، أصرخ أتألم، ثم أعود إلى المنفردة.

كانت حصتي هناك 24 جلسة تعذيب بالسياط على ظهري وقدميَّ، تتخللها اللكمات على الوجه والمعدة. وأيضًا كما كان في سابقه وصل عدد جلسات الكهرباء إلى 24 جلسة. جلسة سياط يوم اللحم، ثم جلسة كهرباء يوم الفروج. ثم كان يوم خروجي هذا الأخير إلى سجن المحكمة حيث التقيت علي وجورج. أظنك الآن تعرف من أين أتت المسبحة التي وقعت مني في المطار، ألست كذلك؟".

"هل تصدق أنني حزنت جدًا عندما فقدت مسبحتي المصنوعة من الزيتون أيضًا، بقيت لأسبوع من دون طعام. كانت الشيء الوحيد المتبقي لي من مدة اعتقالي التي وصلت إلى 217 يومًا، وليس أربع سنوات. نعم يا صديقي الآن عرفت من أين وصلتك. كنت أعرف من البداية، لكنني فضَّلت سماع القصة كلها منك".

"أشكرك جزيل الشكر أنك نبَّهتني لوقوعها من جيبي. لا أعرف شيئًا عن صاحبها، أتصل بين الحين والآخر بعوائل الذين أعطاني جورج

أرقامهم مع المسبحة، لا أحد يجيب على اتصالاتي، والمحامي يعمل على بعض القضايا، ولكنه طريق طويل حسبما يخبرني به المحامي باسم".

"أرجو أن لا تمل من الاتصال والمحاولة. أنت تعرف معرفة جيدة شعور السجين في الداخل، وأمله الدائم بخروجه للقاء أهله".

"أعرف ذلك جيدًا. هل سنتحدث عن تجربتك الآن؟ لِمَ لا تحكي الآن قصتك؟! لن أصنع منها كتابًا، بل نكون متساوين وقتها".

"يا لك من محتال! بالطبع سأخبرك تفاصيل قصة اعتقالي وسجني، فيها الكثير من التشابه مع قصتك طبعًا، ومع الكثير من القصص التي سمعتها مؤخرًا هنا وهناك، ونفس الابتكارات شاهدت".

"سأكون سعيدًا بلقائك مجددًا أينما تريد ومتى شئت. سأكون حاضرًا لسماعك ... أنت الآن أخي الذي لم تلده أمي".

"شكرًا يا عزيزي، وأنت أيضًا. اسمع، سأعمل على تدوين ما تحدثنا به بطريقة ما تسلسلية هرمية، وبعد انتهائي من ذلك سأقوم بإرسالها لك ولماريا لتقرأوها، ثم سنتفق على صيغة نهائية وأقوم بعد ذلك بالتواصل مع نفس دار النشر التي أصدرت ديواني الأول معها. ما رأيك في الخطة؟".

"يبدو أنك لديك كنترول على الأمر ... سيكون من الجيد قراءة ما ستكتب. أتمنى لك التوفيق".

"شكرًا لك يا صديقي العزيز، وأتمناه لكم دومًا".

"سنبقى على تواصل".

"بكل تأكيد".

"إلى اللقاء".

"إلى اللقاء".

***

الجمعة ٠٩-٠٢-٢٠١٨

بينما كنت أراجع هذه اليوميات وأقلّب صفحاتها قبل إرسالها للمرة الأخيرة لصديقي 101، استوقفني مقال بغاية الروعة عن المدينة التي تربيت فيها "سراقب".

وقد قرأته مرتين، قبل التفكير مليًا، لمن من أصدقائي الذين أشاركهم يومياتي سأرسل هذا المقال؟ بالطبع لم يخطر ببالي سوى صديقي 101، فقمت بنسخه من الجريدة، وتحدثت مع كاتبه صديقي نجم الدين سمان، مبديًا رغبتي في أن يكون هذا المقال آخر صفحة من هذه القصة، فوافق بكل سرور، ومن ثم قمت بكتابة رسالة نصية في فيسبوك لصديقي 101، جاء فيها:

"عزيزي 101 ..

أودّ، بكل سرور، مشاركتك هذا المقال المنشور في جريدة جيرون، كآخر رسالة مني، وآخر صفحات القصة. المقال يتحدث عن المدينة التي أخبرتك عنها، سراقب.

لقد قابلت كاتب المقال، نجم الدين سمان، في تركيا – إسطنبول، في رحلتي التي قمت بها صيف عام 2015. قبل لقائي بك ببضعة شهور. أعمامي الثلاثة يعيشون هناك مع عائلتهم في مدينة قونية - مدينة جميلة أنصحك بزيارتها، ثم قابلت نجم في إسطنبول أثناء مشاركتي لكاتب نرويجي عراقي الأصل اسمه وليد الكبيسي، في رحلته إلى تركيا لكتابة ريبورتاج عن الثورة السورية، ولهذا السبب التقيت بنجم.

جلسنا على طاولة واحدة وأخبرنا عن دوره في الثورة السورية، وسجل وليد المقابلة معه ومع صديقي حسين بصبوص، الذي تربيت معه في سراقب، مثل صداقتك بوائل وأحمد رحمه الله.

سيكون من الجميل الالتقاء بك ثانية في أوسلو أو برلين أو باريس. أتركك الآن مع المقال. كن بخير يا صديقي ما دمت حيًا".

الصديق لك دومًا

أوسلو .. 15-02-2018

***

عن سراقب .. كلّما شهقت الروح .. ٠٩-٠٢-٢٠١٨

التصنيف همومٌ ثقافيّة .. نجم الدين سمان

"كلّما قرأتُ خبرًا عن قصف مدينة سراقب، اهتزّت عمارةُ الذكريات في داخلي، كأنّما القصف كان قريبًا جدًا، وسيصير وشيكًا جدًا، وليس لديّ ملجأ منه سوى الكتابة، أحتمي بها من قصف الذكريات.

ليس هذا لأنّ سراقب تبعد عن مدينتي مسافة سهمٍ من قوسه إلى مُستقرّه، وإلّا .. كيف عرفتها طفلًا، يأخذني والدي إليها، وبالضبط إلى أصدقائه من "آل الحيّاني"، ثمّ سيأخذ الجميعُ جميعنا إلى "المقتايه" كحقلٍ على امتداد النظر، يتكوّر فيه "الجبس" البطيخ الأحمر، حتى يصير أكبر من "الكرة الأرضية" في غرفة مدير مدرستي الإبتدائية، قاعدتُه ترابٌ أحمر، بل كلونه حين يصيرُ في الأتون قرميدًا، ثمّ يمتدّ اخضرارُ أوراقه حتى خطّ الأفق، وفوقه شرشفُ سماءٍ زرقاء لا يطويها البصر.

ولا تُختتمُ رحلةٌ إلى سراقب سوى عند "أبو سلوى"، حيث زبديّة "الهيطيلية" وفوقها "البوظة" من حليبٍ بلديٍّ لا يعرفُ الغشُّ بياضه، ولا يقبلُ زينةً سوى بحبّات الفستق الحلبيّ.

أن يُعرف شخصٌ بالإحالة إلى اسم ابنته أمرٌ نادرٌ في مجتمعٍ يُصنّفُهُ البعضُ أقرب إلى البداوة، غير مُدركين حجم التحوُّلات في بُنيته، وطبيعة الاستقرار الزراعي في منطقةٍ خصبة، وحُبّ أهله للعمل وللعلم معًا.

يختصر كثيرٌ من السوريين مدينة سراقب بالهيطليّة والجبس؛ وهذا ليس عدلًا، وليس سوى جانبٍ منها، بل ليس جوهرها على الإطلاق. جوهرُها الحب والتكاتُف وعشق العمل، فقد تحوّلت من قريةٍ إلى بلدةٍ إلى مدينة مُزدهرة، بفضل ذاك الثالوث، وأيضًا بتبلوُر نخبةٍ فيها من المُتعلّمين والمُثقفين والمُبدعين؛ حتى لكأنّ عدوى السياسة والثقافة قد مسّت جميع أجيالها المُتوالية! وكما أغلب المدن السورية، تجاذبتها الأفكار الشيوعية والقومية الناصرية البعثية، مع بعضٍ من المُتأسلمين، ردًا على عُنف السلطة الأسدية في الثمانينيات.

منذ أول أمسيةٍ أدبيةٍ في سراقب شاركتُ فيها عام 1978، ثمّ في مهرجانها الأدبي - الفني؛ كنتُ أحسدها على جمهورها الدؤوب في مُتابعته، كما في طرح الأسئلة، مُتفاخرًا به في الوقت ذاته.

وكنتُ، كلما استشهدتُ على كسر مركزيّة المدن الكبرى في استقطابها لكلّ شيء؛ أذكرها بين حزمةٍ من المُدُن المنسيّة في الخُطط الخمسية البعثية ثم الأسدية؛ ولكن النابضة بالحياة على الرغم من كلّ شيء: من عامودا إلى الرقّة، ومن عفرين إلى مصياف، ومن السلمية إلى بسكنتا إلى شهبا والقريّا وسواها.

عرفتُ الفنان والناقد التشكيلي عبد الرزاق كنجو، والشاعر أسعد سمّاق، وصادقتُ وعشتُ أيامًا مع الشاعر عبد السلام حلّوم، والقاصّ عبد الرحمن حلّاق، وبخاصةٍ في جامعة حلب، ومع تواتر مُلتقاها الأدبي الشهير منذ 1981 حتى 1986؛ كما يروقني إبداع الشاعر ياسر الأطرش، ولن يكون منهل باريش آخر سراقبي أعرفه؛ وليعذرني الجميع، فقائمة الأسماء تطول.

كانت فاتحة تعرُّفي الثقافي على سراقب: أستاذ التاريخ عبد الله الحيّاني، ثمّ وجدني في موقع "تل مرديخ" قرب سراقب، فابتسم لطالبه:

- "جيت لهون .. لتشاغب كمان!". ضحكت.

- سمعت أنهم بدؤوا ترجمة بعض الرقيمات، وأنت معنا من مؤسسي النادي الأدبي، ألا يستحق الأمرُ إقامة محاضرة!

هزّ رأسه، أخذني من يدي، تجوّلنا حيثُ نقّب الإيطاليّ "باولو ماتيه" طويلًا عن يقينٍ لم يلمسهُ بعدُ، بأنّ لسوريا الوسطى من جنوبها: الجولان، إلى شمالها في إدلب، دورٌ في الحضارات القديمة، لا يقلُّ عن دور المدن الرافديّة، وبخاصةٍ التي على نهر الفرات، حتى تبدّت له المكتبة الملكيّة في إيبلا، بكلّ أيقوناتها المسمارية، وتبدّى لألفونسو آركي، خبير اللغات الساميّة في بعثته، حجمُ القرابة بين الإيبلائية والعربية.

كان آركي يضع اللمسات الأخيرة على أول قاموسٍ له لأول مئة كلمةٍ إيبلائية، وقد ترجم منها 99 كلمة، فاستعصى عليه اكتمالُ عشراتٍ إلى مئات. ضحك الحيّاني:

- الرقم 99 مُعضلةُ هذا الشرق كلّه!

وفي المُحاضرة التي أقمناها له.. اعترف ألفونسو آركي بأنّ الحيّاني قد حلّ له لغز الكلمة المئة في قاموسه، ثمّ أردف:

- كانت تُقلقني تلك الكلمة، فسألتُ الأستاذ الحياني عنها: لم أجد لكلمة "كيّاتُو" ترجمةً. ضحك الحيّاني.

- ستعرفها من حاراتنا.

أخذني إلى قرية "تلّ مرديخ" ذاتها؛ توقّف عند أولاد يلعبون بالكرات الزجاجية الصغيرة الملونة "الدحل"، ترجّل من السيارة.. انحنى مُلتقطًا أحد الكرات الزجاجية الصغيرة الملوّنة:

- "هي.. لمين؟". صاح ولد.

- "هي كياتي أنا".

يقصد: هذه لي؛ هذه خاصّتي. عندها، عرف ألفونسو معنى الكلمة المئة؛ مدهوشًا من بقائها على قيد الحياة ثلاثة آلاف عام على الأقلّ.

فكيف سيستطيع الطاغيةُ الابنُ.. وريثُ الطاغية الأب الفائز قسرًا بـ99 فاصلة 99 إلى الأبد! أن يقصف كلّ هذه التراكم الحضاريّ؛ حتى لو دمّر سراقب كلّها؛ كما دمّر الغُزاةُ إيبلا من قبلها.

إنهم يقصفون "كيّات" أطفالنا من جديد.. يا ألفونسو.

فمن هنا .. من هذا السهل المُمتدّ إلى سفوح طوروس، مرّ الغُزاة واستبدّ بالناس طغاتُنا، كما مرّ امرؤ القيس في طريقه إلى "قيصر الروم" في بيزنطة، طلباً لتاج المُلك، فعاد بعباءةٍ مسمومة!

ثمّ زال هؤلاء جميعهم .. وبقيت إيبلا.

بقي شعر امرؤ القيس .. وزالت بيزنطة.

مات الطاغية الأبديّ، وسيزولُ وريثُه، لتبقى سراقب عصيّةً .. سوى عن الحياة".

تمّت

الفهرس

الإهداء .. ---------- 1
مقدمة .. ---------- 3
كانون الثاني- يناير 2016---------- 5
أواخر كانون الثاني 2016 ---------- 25
الأحد 31-01-2016---------- 29
الإثنين 15-02-2016 ---------- 32
السبت 20-02-2016 ---------- 35
الخميس 25-02-2016 ---------- 39
محادثة سكايب الأولى .. الجمعة 25-03-2016--------- 44
محادثة سكايب الثانية .. الجمعة 08-04-2016---------- 52
يوم الجمعة 22-04-2016 ---------- 59
الجمعة 06-05-2016---------- 61
الجمعة 27-05-2016 ---------- 69
يوم الجمعة 17-06-2016 ---------- 75
السبت 18-06-2016 ---------- 85

الخميس 30-06-2016 ---------- 87
الجمعة 01-07-2016 ---------- 91
اللقاء الأول في أوسلو .. الأحد 17-07-2016 ------- 101
اللقاء الثاني في أوسلو .. الاثنين 18-07-2016 ------- 120
اللقاء الثالث في أوسلو .. الثلاثاء 19-07-2016 ------ 134
محادثة سكايب .. الأحد 27-11-2016 ---------- 147
السبت 17-12-2016 ---------- 160
محادثة سكايب .. الأحد 15-01-2017 ---------- 162
محادثة سكايب .. الأحد 19-03-2018 ---------- 174
محادثة سكايب .. الأحد 16-07-2017 ---------- 184
محادثة سكايب .. الأحد 17-09-2017 ---------- 205
محادثة سكايب .. السبت 16-12-2017 ---------- 239
الجمعة 09-02-2018 ---------- 255
عن سراقب .. كلّما شهقت الروح .. 09-02-2018 --- 257
الفهرس ---------- 263